

تأليف

الدكتور عبد العزيز كامل

دار البحوث العلمية

الكويت

الطبعة الأولى

١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

دار البحوث العلمية للنشر والتوزيع
الكويت - شارع فهد السالم - عمارة الاوقاف رقم ٤
ص.ب : ٢٨٥٧ - هاتف : ٤١٤٢٢٠


القرآن والتاريخ

بسم الله الرحمن الرحيم



المحتويات

مدخل

آثرت ان اجعل عنوان هذه الدراسة « القرآن والتاريخ »، لأبتعد — قاصدا — عن عناوين اكثر تحديدا مثل : « فلسفة التاريخ في القرآن » « التفسير القرآني للتاريخ » او ، « كيف يفسر القرآن التاريخ ؟». وذلك لانه — حتى في التفسير العام — تعددت المدارس الفكرية مع ايمانها جميعا بالله ورسوله ، وان القرآن كتاب الله ووحيه المنزل على النبي عليه الصلاة والسلام . وتنوعت المداخل الى القرآن ، وتنوعت معها المناهج : ما بين التفسير المأثور الى التفسير المعقول ، الى اهتمامات بجوانب اكثر من غيرها ، كالاحكام او اللغة [1] ..

من اجل ذلك ، لا تزيد هذه الدراسة عن ان تكون محاولة لفهم العلاقة بين القرآن والتاريخ وهي ثلاثة اقسام اساسية :

(١) عناصر التاريخ : من الزمان والمكان والاحداث والاشخاص والابطال .

(٢) مناهج التاريخ : من جمع المعلومات وتحقيقها وتفسيرها .

(٣) صناعة التاريخ : وهي الافادة من المناهج في صناعة حياة جديدة . وهذا هو الهدف الاسمى من الدراسات التاريخية كما يصوره القران .

---

(١) السيوطي : الاتقان في علوم القران : معرفة تفسير القران وتأويله ٢:١٧٣—١٨٦ط. القاهرة ١٣٧٠هـ — ١٩٥١م وهو من اوفى المراجع في علوم القران .



القسم الأول

عناصر التاريخ

اولا ـــ الزمان

في القران انواع من الزمان أبرزها ثلاثة :

(١) الزمان الكوكبي : وهو هذا الزمان الذي نقيم عليه حساباتنا ، من ايام واقسامها ومضاعفاتها . وفيه يقول الله تعالى:

وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ (**الاسراء**).

أ- وبهذا الزمان الكوكبي تتحد اعمار الافراد ومراحل السن :

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ

نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ (الاحقاف).

ب ــ وهو الزمان الذي تتحدد به العبادات اليومية :

أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ (الاسراء).

ج ــ والعبادات السنوية او عبادة العمر كالحج :
يقول تعالى عن الصوم :

شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾
(البقرة).

وعن الحج يقول تعالى من حيث ارتباطاته بالزمان :

﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ ﴾ (البقرة : ١٩٧).

د ـ ويربط العبادات ذات الطابع الاقتصادي والاجتماعي كالزكاة ، بالزمان ، فيقول في الثمار :

﴿ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ ﴾ (الانعام : ١٤١) .

هـ ـ ويربط به اعمار الامم ودورات ازدهارها وأفولها . يقول تعالى في قصة قارون : ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ (القصص).

ويقول تعالى عن منكري البعث : ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ (الاحقاف).

وللقرن — لغويا — مدلولان :

أولهما زمني : ومدته عشر سنوات الى مائة سنة، والثاني بشري : الأمة تأتي بعد الأمة ، وأهل كل زمان ، مأخوذ من الاقتران ، فكأنه المقدار الذي يقترن فيه أهل ذلك الزمان في أعمارهم وأحوالهم [٢] .

(٢) ما قبل الزمان الكوكبي :

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ (ق)

والسماوات — بما فيها من اجرام نعلم بها عدد السنين والحساب-داخله ضمن هذا « الخلق ». فمفهوم « يوم » في هذه الاية مختلفة عن « اليوم » الذي نتعامل به في حياتنا .

(٣) ما بعد الزمان الكوكبي :

يقول تعالى عن يوم القيامة :

يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ (ابراهيم).

---

(٢) ابن منظور : لسان العرب ٣: ٧٦ ط .دار لسان العرب. بيروت .

وفي القرآن عناية كبيرة بمشاهد القيامة :

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥ ﴾

(الانفطار).

وترد في القرآن الكريم آيات تدل على طول ذلك اليوم ، بعد ان تبدل الارض غير الارض والسماوات : ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤ ﴾

(المعارج).

ويقول ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٤٧ ﴾

« الحج »

يقول الامام ابن كثير في تفسيره [٣] : ان مقدار الف سنة عند خلقه ، كيوم واحد عنده ، بالنسبة الى حكمه . (يعني يوم الجزاء).

---

(٣) ابن كثير : تفسير القران العظيم ٤:٦٣٥ط . الاندلس . بيروت ١٣٨٥هـ — ١٩٦٦م.

(٤) الزمان النفسي : وفيه يبدو احساس الانسان بطول الزمن او قصره . ويضرب الله له مثالا بحوار يدور يوم القيامة :

قَـٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَـٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾

(المؤمنون)

وصفوة القول ان الزمان في القرآن : مقاييس معلومة ، ومقاييس مجهولة ، سابقة ولاحقة ، واحساس به ، قصرا او امتدادا ، يطغى على القياس المعلوم .

وليس الزمان وحده هو المتغير :

هذا التبدل في المقياس والاحساس لا يقتصر على الزمان . فللانسان ـــ في القرآن ـــ وجود لا حق لوجود الزمان الفلكي المعروف ، ومع تبدل الارض والسماوات تتبدل قوى الانسان وما حوله من موجودات. يقول تعالى في وصف البصر يوم القيامة :

لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾

(ق)

ويذكر عن جزاء المؤمنين :

وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ (البقرة).

وما نود ان نفصل في هذه المشاهد ، وإن جمع بينها أنها صور من الغيب ، يربطها مجرد التشابه ، بما في دنيانا ، ويعرض لها هذا البحث بقدر ما تؤثر في حياتنا الدنيا . وبعبارة اخرى : بقدر ما تؤثر في تاريخنا الانساني في ارض العمل ، لا في افق الجزاء الاخروي .

اجزاء الزمان : مقارنة :

وهناك فارق يستوقف النظر بين معالجة القرآن لأجزاء الزمان ومعالجة العهد القديم ، وبعض الكتب الدينية الاخرى التي عرضت لطول الزمان كما في التراث الهندي .

في العهد القديم :

حصر سفر التكوين نفسه في اطار زمني ضيق جعله مجال التاريخ الانساني من بدئه الى أحداث السفر . ويبدأ الاصحاح الخامس في سفر التكوين هكذا :

« هذا كتاب مواليد آدم. يوم خلق الله الانسان على شبه الله

عمله ، ذكرا وانثى خلقه وباركه ، ودعا اسمه آدم يوم خلق . وعاش آدم مائة وثلاثين سنة » (تكوين ٥:١—٣ » وتتعاقب بعد هذا ذرية آدم : اسما اسما ، وعمرا عمرا ، حتى طوفان نوح ، ثم تتعاقب سلالته إسما إسما ، وعُمرا عُمرا . ويعقب موريس بوكاي على هذا بقوله . « ولكي نكون اكثر قربا من الحقيقة ، لنقل ان خلق العالم — بحسب هذا التقدير العبري — يحدد تقريبا بسبعة وثلاثين قرنا قبل الميلاد [٤] ثم يقول بعد دراسة السلاسل الزمنية في السفر « هناك اذن استحالة اتفاق واضحة بين ما يمكن استنتاجه من المعطيات الحسابية لسفر التكوين الخاصة بظهور الانسان ، وبين اكثر المعارف تأسسا في عصرنا[٥]. »

في القرآن :

اما القرآن فلا يعرض سلاسل اجيال تعاقبت من لدن آدم . ولا تعاقبا في اسماء ولا انبياء ، مكتفيا بمعالم بارزة في تاريخ النبوات ، ذاكرا بكل وضوح ان الانبياء في القرآن بعض المرسلين .

يقول تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ (غافر : ٧٨).

(٤) موريس بوكاي : دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ص ٤٧ ط . المعارف القاهرة ١٩٧٨ (الترجمة العربية) .
(٥) نفس المرجع ص ٥١

وبهذا احتوى القرآن امتداد الزمان الذي اثبته العلم لحياة الانسان على هذه الارض ، واحتوى الاتساع المكاني في الازمان المتعاقبة ، وما قام فيها من حضارات ، وما اعتنقه اهلها من قيم واخلاقيات تقارب او تشابه ما نادت به الاديان السماوية التي ذكرها القرآن تفصيلا .

مدى العناية باجزاء الزمان :

ويعني القران بأجزاء الزمان بقدر ما تساعد على توضيح القصص القرآني : معرفه واعتباراً .

وهو يكتفي فيها احيانا بالاجمال ، أذا كان وحده يغني ... كما في قول الله مدافعا عن رسوله ومبينا ان الوحي من عند الله .

قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ (يونس) .

وفي قصة يوسف نقرأ اسلوبين في معاملة الزمان : فبعد ان ابى يوسف الاستجابة لمراودة امرأة العزيز . وشهد شاهد من

اهلها بما يثبت براءته . قال العزيز :

يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ
وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾

ولكن اصرت امرأة العزيز على متابعة ما هي فيه . ويأتي قول الله تعالى : ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ (يوسف)

وتسير القصة حتى ينبىء يوسف صاحبيه في السجن بتأويل ما رأيا في المنام : وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ (يوسف) .

ونقف عند قوله تعالى « حتى حين » وقوله « بضع سنين » فالمدة التي قضاها يوسف — رغم اهميتها — غير محددة في القصة . و« بضع » لغويا قد تكون بين الثلاث والتسع . وعدم التحديد هنا يزيد من الاحساس بالظلم الواقع على يوسف وبفساد نظام الحكم وقتئذ ، فسادا يمكن ان يبقى فيه البرىء سجينا مدة لا حساب

للزمن فيها . السجين دفعته اهواء الحكم وسلطة الحاكمين الى السجن . وقد تدفعه الى النور شهادة ساقي الخمر ، او وساطة من حاشية الحاكم .

ويبدو حساب الزمن دقيقا اذا كنا بسبيل التخطيط وانقاذ الناس من المجاعة المنتظرة . لا مجال هنا لبضع سنين او الى حين . ولكن المجال تجميع جهود وتحديد مدة وتنظيم عمل . وفي هذا قول الله تعالى عن الخطة التي رسمها يوسف ليقابل بها المجاعة المنتظرة :

قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾

(يوسف)

والخطة ثلاث مراحل : سبع سنين لكل من المرحلتين الاولى والثانية وواحدة للمرحلة الثالثة . ولكل من الثلاث عمل يختلف عن الاخرى :

الاولى : تحديد مدة ، وانتاج زراعي ، ينبغي ان يرتفع فيه معدل الانتاج « دأبا » ومع وفرة الانتاج تقييد الاستهلاك ويتمثل في قوله تعالى « الا قليلا مما تأكلون » وذلك من اجل ادخار اكبر قدر

ممكن من المحصول يتمثل في قوله تعالى « **فما حصدتم فذروه في سنبله** » .

الثانية : مرحلة استهلاك منظم يتوفر فيها عدالة التوزيع ودقته ، فلا يأتي الاستهلاك على كل المخزون . ويتمثل هذا في قوله تعالى « **يأكلن ما قدمتم لهن الا قليلا مما تحصنون** » .

الثالثة : مرحلة اعادة الاستثمار ، وذلك بعد ارتفاع الفيضان ـــ بعد قحط السنوات السبع ـــ فتجد الارض البذور المدخرة ، فيزرع الناس ويحصدون ويعصرون .

ارتبط حساب الزمان هنا بالتخطيط والعدل ، كما ارتبط اغفال الزمان بالتسيب والظلم . وكان تعريف الزمان وتنكيره ، عاملا ساعد على ابراز الظاهرة الاجتماعية . ويبدو من هذا كيف تخدم الحقيقة التاريخية هدف القصة في القرآن . وان تحديد الزمان فيه ، على اساس انتقائي ، مرتبط بالهدف وهو العبرة دون اقتصار على مجرد المعرفة . وفي خواتيم هذه السورة نقرأ الربط بين السرد والهدف في قوله تعالى :

لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

(يوسف)

ثانيا : المكان

(١) عندما شرح السيد محمد رشيد رضا قصة آدم في « تفسير المنار » قال عن المكان في القرآن :

« ولكون التاريخ غير مقصود له ، لان مسائله من حيث هو تاريخ ، ليست من مهمات الدين ، من حيث هو دين ، وانما ينظر الدين من التاريخ الى وجه العبرة دون غيره ، لم يبين الزمان والمكان كما بينا في سفر التكوين » (٦) .

ويبدو ان هذا رأي رشيد رضا في الامكنة والازمنة التي لم يذكرها القرآن . اما من ذكره من الامكنة والمواضع ، فله فيه رأي أخر . فعند دراسته سورة هود خصص بحثا لقصص القرآن ، جاء في مزاياه — في اعجازها العلمي — « ما في قصص الاقوام من المسائل التاريخية والموضعية »(٧) .

(٢) ويذهب محمد خلف الله في كتابه « الفن القصصي في القرآن الكريم » الى ان القرآن لم يقصد الى التاريخ الا في القليل النادر الذي لا حكم له ، وانه على العكس من ذلك ، عمد الى ابهام مقومات التاريخ من زمان ومكان . ومن هنا يتبين ان القوم قد عكسوا القضية حين شغلوا انفسهم بالبحث عن مقومات التاريخ ، وهي غير مقصودة ، واهملوا المقاصد الحقيقية للقصص القرآني (٨).

---

(٦) السيد محمد رشيد رضا : تفسير المنار ١ : ٢٧٩ ط . المنار ١٣٦٧ هـ / القاهرة .

(٧) المرجع السابق ١٢ : ٤٢ .

(٨) محمد احمد خلف الله : الفن القصصي في القرآن الكريم ص ٩ . القاهرة ١٩٥٠ — ١٩٥١ .

(٣) وكان لعلماء الاسلام في شبه القارة الهندية الباكستانية موقف آخر ، فقد عنوا بالتاريخ الجغرافي للقرآن . واخرج العلامة سليمان الندوي في هذا كتابه « ارض القران ». واتخذه مظفر الدين الندوي اساسا لكتاب « التاريخ الجغرافي للقرآن » وعني فيه بالتحديد الزمني للنبوات ، وتحقيق الاعلام ، والصلات بين اسماء الاشخاص والشعوب التي يعرض لها ومواطنهم ، دون ان يربط تلك المواطن في اطار وحدة او نمط جغرافي [٩] .

ولكاتب هذه السطور وجهه نظر في مدى عناية القرآن الكريم بالمكان ، يلخصها فيما يلي [١٠] :

المسجد الحرام : مركز الخريطة .

اهم مكان يعني به القرآن الكريم هو المسجد الحرام . هو اول

---

(9) SAYED MUZAFFAR UD -DIN NADVI
A GEOGRAPHICAL HISTORY OF THE QUR'AN
SH. M. ASHRAF. LAHORE, PAKISTAN. REP. 1974 .
وهناك ابحاث اخرى عن التاريخ في القرآن والتفسير الاسلامي للتاريخ ، سنشير اليها في مواضعها من البحث وكتاب مظفر الدين الندوي ــ على ايجازه ــ من الكتب التي ينبغي قراءتها في هذا المجال . كانت طبعته الاولى عام ١٩٣٦ مبنية على كتاب ــ ارض القرآن ــ لمولانا سليمان الندوي الذي صدر باللغة الاورديه عام ١٩١٥ وهو يلخص المصادر المعتمدة حتى ذلك التاريخ ثم كانت الطبعة الثانية لكتاب مظفر الدين عام ١٩٦٨ ثم اعيدت عام ١٩٧٤ وعنايته الرئيسية بجغرافية الجزيرة العربية ثم شعوب القرآن .

(١٠) عبد العزيز كامل : محاضرة عن « مدخل جغرافي الي قصص القرآن الكريم » القيت في قاعة الامام محمد عبده بالازهر الشريف عام ١٩٦١ وهي اساس الفصل الاول من كتاب عنوانه « في أرض القرآن » مع اضافات ميدانية قام بها الكاتب في الاردن عام ١٩٧٧ ، ١٩٨٠ . وسيصدر الكتاب ــ ان شاء الله ــ في سلسلة « عالم المعرفة » مطبوعات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ــ بالكويت .

بيت وضع للناس . فيه آيات بينات مقام ابراهيم .. ومن دخله كان آمنا. وهو قبلة المسلمين في الصلاة . واليه يحج المسلمون ، وتشد الرحال .

منطقة القلب :

هذا البيت هو مركز منطقة القلب في قصص القرآن والتاريخ الانساني ، التي ذكر الله فيها اكبر عدد من الاسماء متجمعة : البيت . مكة . مقام ابراهيم . الصفا . والمروة . عرفات. المشعر الحرام . وتضمها الايات الثلاث الاتية :

١ — إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ (آل عمران ٩٦ ، ٩٧) فهذه ثلاثة.

٢ — إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا

« البقرة : ١٥٨ »وهذان اثنان .

٣ — فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ « البقرة : ١٩٨ » فهذان اثنان بهما تمام

السبعة . هذا الى مكان جاء بصفته لا باسمه وهو الغار الذي اوى اليه الرسول في الهجرة النبوية ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾
« التوبة : ٤٠ ».

نطاق الغزوات :

وحول منطقة القلب هذه نطاق واسع يمكن ان نُسميه « نطاق الغزوات » جاءت فيه الاماكن الآتيه :

١ ـــ المدينة ، في قوله تعالى ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ « التوبة : ١٢٠»

ووردت باسم يثرب في سورة الاحزاب « الاية ١٣ ».

﴿يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾

٢ ـــ وخص الله غزوة بدر بثلاثة اماكن نقرؤها في قوله تعالى :

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ (آل عمران : ١٢٣) .

إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ (الانفال : ٤٢) وهذه تقع جميعا الى شمال غرب منطقة القلب .

٣ — وجاء مكان آخر الى الجنوب الشرقي من مكة في قوله تعالى :

لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا (التوبة : ٢٥).

فهنا نرى اتساعا في المساحة وقلة في عدد الاماكن المذكورة باسمائها .

الدائرة الثالثة :

واذا اعتبرنا البيت الحرام او مكة مركز دائرة نصف قطرها نحو ١٢٠٠ كيلو مترا وجدنا اليمن والعراق والشام ومصر تقع على محيط هذه الدائرة او قريبا منها . وفي نطاق هذه الدائرة او الحلقة الثالثة وقعت معظم احداث القصص القرآني .

١ — ومن المركز يمتد محور جنوبي الى اليمن وبه قصص عاد ونبيهم هود : وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ (الاحقاف : ٢١) وهي جبال الرمل باليمن ويصف الله مواطنهم

بالغنى . وجاء في هذا المحور ذكر سبأ : ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ « سبأ : ١٥

ولا زالت اثار السد والجنتين باقية .

٢ ـــ ومن المركز يمتد محور شمالي ، يذكر فيه الله عدة اماكن متتابعة على طريق التجارة ، جاءت في سورة الحجر :

أ ـــ قرى لوط في قوله تعالى :

﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ (الحجر)

ثم وصفها بقوله ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ (الحجر).

وهي المؤتفكات في قوله تعالى : ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾﴾ (النجم).

ب ـــ اصحاب الايكة في قوله تعالى

﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾

فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾ (الحجر)

وهي مدين في قوله تعالى . ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ (الاعراف : ٨٥).

ج ـــ ديار ثمود وهم اصحاب الحجر في قوله تعالى :

وَلَقَدْ كَذَّبَ

أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾

(الحجر)

وتضم هذه الاماكن قصص لوط وشعيب نبي مدين ، وصالح نبي ثمود .

فروع المحور الشمالي :

ويتفرع هذا المحور الشمالي الى ثلاث شعب :

أ ـ الأولى شمالية تصل بنا الى المسجد الاقصى في قوله تعالى :

سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ « الاسراء : ١ ».

وذكر الله ديار الروم في قوله تعالى :

غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم

مِنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ « الروم : ٢ ـ ٤ ».

ولم تصرح الآية بذكر قرية سورة يس وان قال بعض المفسرين انها انطاكية من بلاد الشام[11] ويتصل بالشام قصص ابراهيم وذريته .

ب ـ الثانية : شمالية شرقية : ويمكن ان تعتبرها امتداد لقوس بلاد الشام الموصل الى العراق . واليها جاءت الاشارة في قوله تعالى : وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ (البقرة : ١٠٢) وتتصل بالعراق قصص نوح وابراهيم .

ج ـ الثالثة شمالية غربية : الى مصر . وردت باسمها الصريح كما وردت سيناء :

أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۖ

(الزخرف : ٥١).

وَشَجَرَةٗ تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ ۝ (المؤمنون)

وترتبط بها قصص ادريس ـ في بعض الاقوال ـ وابراهيم .

(١١) الزمخشري : تفسير الكشاف : ٤ : ٧ط . الحلبي . القاهرة ١٩٤٦ .

واسحق وبنيه . واسماعيل. ويوسف . وموسى. وعيسى. ومحمد في ليلة الاسراء وبولده ابراهيم من مارية القبطية .

ما وراء الدائرة الثالثة :

وهناك قصص لم يذكر الله مكانها في القرآن وابرزها :

١ ــ مجموعة ما قبل الطوفان : وبخاصة قصة آدم .

٢ ــ مجموعة سورة الكهف وان كثرت الاقوال فيها . ويهمنا منها في هذه الدراسة انها تعطي الامتداد المكاني في التاريخ في قول الله تعالى حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ (الكهف : ٨٦)

حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ (الكهف : ٩٠)

ولا يصرفه التجول عن مسئوليات محددة عليه ان يحملها :

حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمًا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلًا ﴿٩٣﴾ **(الكهف)**

وهنا أقام معهم السد محكما قويا وشاركوا في العمل . وعندما رفعه واختبره قال : هَٰذَا رَحۡمَةٌ مِّن رَّبِّيۖ (الكهف : ٩٨).

كما جاءت قصة موسى وصاحبه ، وقصة اصحاب الجنتين ، واصحاب الكهف ، وان تراوحت الآراء في مكان الكهف بين الاردن واسيا الصغرى .

وصفوة القول في المكان :

ان مركز التاريخ الانساني كما يصوره القرآن هو البيت الحرام : اول بيت وضع للناس . وحوله منطقة القلب التي ترتبط بها شعائر العبادة الاساسية من الصلاة والحج : الوحدة والتوحيد ، والكسب الحلال للانفاق الحلال ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ (ابراهيم). وحولها دائرة الغزوات حيث يتمثل الدفاع عن العقيدة وحمايتها ، وتليها دائرة الاعتبار في القصص الممتد على المحورين الشمالي بفروعه والجنوبي ، ثم دائرة واسعة غير محدودة تمثل وجوب السير في الارض لمزيد من الاعتبار ، سيرا الى مطالع الشمس ومغاربها ، وعملا في مجال العقيدة والانشاء والتعمير ، والحصول على مزيد من العلم مع التواضع الدائم لله وهي معان تمثلها جميعا قصص سورة الكهف دون ان تنفرد بها .

مقارنة :

ولم يكن هدف القرآن ان يستغرق الاماكن حصرا وتسجيلا . وانما اكتفى بان اورد لنا نمطا واضحا من الدراسة يتمثل في مركز ودوائر متتابعة في الاتساع ومحاور تربط بين القلب والاطراف ، ودعوة الى مزيد من الدراسة : ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟﴾ (العنكبوت : ٢٠) وهي بدورها ممهدة لتطوير في المجتمعات وبناء افضل للتاريخ الانساني .

وأود هنا ان اذكر ما اتجهت اليه الدراسة التاريخية المعاصرة من نظرة علمية وامتداد في المكان اثمرته سهولة المواصلات وزيادة الاحتكاك بين الشعوب وتيسر المزيد من البحوث التاريخية والاثرية، وما يرتبط بها من وثائق كان النسيان قد طواها ، او عدا عليها الخراب او طمرتها الرمال .

وما يرتبط بها من دراسات ناقدة ، وعناية بالتطور العام ومقوماته الاجتماعية والاقتصادية ودور الشعوب والحضارات النائية او المنسية فيه [١٢] كل اولئك مما يتسع له افق القرآن. بل ما يدعو اليه القرآن من البحث عن مزيد من المعرفة عبر الزمان والمكان والتنوع الموضوعي .

○ ○ ○

---

(١٢) في الاتجاهات الحديثة لكتابة التاريخ انظر :

GEOFFREY BARRACLOUGH : HISTORY

وهو الفصل الثالث من

UNESCO (1978) MAIN TRENDS OF RESEARCH IN THE SOCIAL AND HUMAN SCIENCES :

القسم الثاني من المجلد الاول ابتداء من ص ٢٢٧ ــ ٤٨٧ وبخاصة (الاتجاهات المعاصرة) من ص ٤٣٣ ويلخص فيه اهم الاتجاهات الحديثة : سرعة التقدم ، واتساع افاقة ــ اذا ما قورن بالجمود السابق ــ وامتداده الى الحضارات الاسيوية والافريقية ، ودور الشعوب في حركة التاريخ ، واثر النهضة والتقنية والعوامل الاجتماعية والاقتصادية .

ثالثا : الاحداث :

المدى الزماني :

تعرض احداث القرآن لبدء الخلق :

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ (البقرة)

كما تعرض حياتنا وتقلبنا فيها ، وتفاعل الانسان مع الانسان ومع الكون :

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ (الملك)

وتذكر نهاية هذه الحياة الدنيا وما وراءها من مشاهد القيامة والجزاء والحساب :

يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ (الفجر).

ومن المنطقي ـــ وهذا هو المدى ـــ ان تكون احداث التاريخ المذكورة في القرآن اختيارا لا حصرا ، دون ان تحدد ـــ دائما ـــ مراحل زمنية بالسنين والقرون ، الا حيث تقتضي العبرة شيئا من التحديد ، كما في قصة يوسف .

التنوع الموضوعي :

وتمثل احداث قصص القرآن قطاعات متكاملة من حياة المجتمعات وتبين مناشطها المتنوعة .
ومع ان قصص الانبياء أبرز ما في القرآن من تاريخ ، الا ان القصص القرآني تعددت فيه المحاور وزوايا الرؤية ، وابرز الى جوار الانبياء ، شخوصا قاموا بأدوار ايجابية في تأييد الرسالة ، وشخوصا قاوموا الحق وحاربوه .

واذا كانت هذه الدراسة تتناول « ابطال التاريخ » فيما تستقبل من اقسام ، الا ان الذي يعنينا ، في هذه المرحلة ، هو ابراز التنوع الموضوعي في القصص ، ومن امثلته : الاساس العقائدي في قصة ابراهيم ـــ وان كان مشتركا بين الانبياء ـــ ، الجانب الاقتصادي في قصة شعيب ، الصناعي في قصة داود ، القضائي في قصة سليمان ، التخطيطي في قصة يوسف ، التبشير والانذار في قصة يحيى ، والاتجاه الروحي في قصة عيسى ، وقد جاء يوازن ايغال اليهود وقتئذ في المادية وحرفية النصوص والرسوم .

ثم تأتي الجهود المتكاملة في تكوين الفرد والاسرة والمجتمع والدولة ، مع الاستفادة من التراث الانساني السابق ، وبناء المستقبل ، في خاتم النبيين محمد عليه وعليهم جميعا الصلاة والسلام .

يقول الله تعالى : ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ (الاعراف)

وتتوازى مع هذا المحور الاساسي في قصص الانبياء ، محاور فرعية لقصص بعضه ملحق بها ، وبعضه مستقل عنها كقصة ذي القرنين واصحاب الكهف وقصة الرجلين ولأحدهما جنتان ، وهذه كلها في سورة الكهف ، وقصة اصحاب الجنة في سورة القلم . وتتنوع الانشطة في هذه المحاور الفرعية ، كما تنوعت في قصص الانبياء : فتبدو متعددة الاهداف : في قصة ذي القرنين : عدلا وتشييدا ومشاركة في المشروعات ونشرا للدين . وتبدو دعوة الى التكافل والبذل في قصة اصحاب الجنة . وتبدو ايمانا بالله يعصم الانسان من الاغترار بماله ، والاستطالة به على الناس ، فهذه الاستطالة الظالمة باب من ابواب الشر وزوال النعمة ، كما في قصة صاحب الجنتين في سورة الكهف . وهى

جميعا — كما في قصص الانبياء — مع تنوعها — تعود الى بناء الحياة على الايمان بالله والاخاء بين الناس ، وهو الهدف الاول للقرآن .

وحدة القصة ووحدة السورة :

وهناك خلاف اساسي بين نهج العهد القديم والجديد في عرض القصص وبين نهج القرآن :

يتبع العهد القديم السرد التاريخي التتابعي : يبدأ سفر التكوين بخلق السماوات والارض ثم خلق الانسان ، وقصة آدم وحواء والخطيئة ، ونزول آدم وزوجه الارض وتتابع ذريته .

واذا ما سرد قصة لا يعود اليها . فالاسفار تترى في تسلسل تاريخي : بعد التكوين اسفار الخروج ، اللاويين ، العدد ، التثنية . وهذه الاسفار الخمسة تنتهي بموت موسى . ومن بعدها اسفار انبياء بني اسرائيل وملوكهم وقضاتهم .

اما العهد الجديد فالسرد فيه يتوازى : اربع روايات مختارة لحياة سيدنا عيسى كتبها من شهدوه او جاءوا بعده : متى ومرقس ولوقا ويوحنا ، ثم اعمال الرسل ورسائلهم ورؤاهم .

ومنهج القرآن مختلف . فهو غير مسبوق ، ولم يتبعه المسلمون من بعد ، في كتابة السيرة النبوية ، او التاريخ الاسلامي ، او التاريخ العام .

فالقصة ترد احيانا اكثر من مرة وتبين الدراسة المستأنية انه لا تكرار ، وانما هو عرض لزوايا متعددة لقصة واحدة . ويرجع تعدد زوايا الرؤية الى تعدد اهداف العرض التاريخي في القرآن كما

توضحها الآيتان التاليتان :

يقول تعالى : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ (هود)

﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ (يوسف)

والآية الاولى فى خواتيم سورة هود ، وفيها تتعدد القصص ، والثانية ختام سورة يوسف وهى مخصصة لقصة برأسها .

نماذج لوحدة السورة :

واذا عرضت السورة من القرآن لمجموعة من القصص ، فإنها تعرضها من زاوية رؤية اساسية تركز على هدف من اهداف القصص القرآني : وكأن السورة في ذاتها وحدة ، والقصة وحدة فيها ، لها اتساقها مع بقية القصص في ذات السورة ، واتساقها مع زوايا اخرى من القصة ذاتها في مواقع اخرى من القرآن .

١ ــ ولنبدأ بوحدة السورة ونأخذ « الذاريات » كنموذج :

القسم في مطلعها بالذاريات . والقصص المعروض ــ فيها بعد وصف الكافرين والمؤمنين ــ : ابراهيم ولوط وموسى وعاد وثمود ونوح . ثم ختام فيه اخذ شديد للكافرين وتثبيت للمؤمنين . والسورة ستون آية في نحو اربع صفحات . فالآيات قصيرة وبعض الايات كلمتان : « **والذاريات ذروا . فالحاملات وقرا ، فالجاريات يسرا** ..) .

والبدء بالذرايات : الرياح ، فيه دلالة على سرعة ايقاع السورة . ومما يزيد من الاحساس بسرعة الايقاع ، قصر الآيات وسرعة الانتقال من معنى الى اخر ، ومن قضية الى اخرى ، بما يحمل الى النفس سرعة التبدل والتغير . وبعد آيات القسم تأتي آيات سريعة في وصف الكافرين :

قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ (الذاريات)

حتي ختام هذا المقطع ، جاءت فيه كلمة « تستعجلون » متناسبة مع « الذاريات » و « والجاريات» .

وتحس بعد هذا هدوءا في الايقاع التالي في وصف المؤمنين ، وان

ربط في سرعة بين العمل الدنيوي والجزاء الأخروي ، في تعاقب وتداخل :

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ (الذاريــات)

وبعد ان يصنف مظاهر احسانهم من العبادة وبذل المال والتأمل في الانفس والآفاق — وهى مصادر معرفة وايمان — ينتقل الى قصة ابراهيم في سرعة تبدو حتى في حركته وهو يكرم ضيفه

فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ (الذاريات)

ويبشرونه بغلام عليم.. وفي « عليم » دلالة على حياته — وصف فيه اختصار الزمن — وانه سيكون على علم . ثم يسأل عن خطبهم ، ويعلم انهم جاءوا لعذاب قوم لوط . وفي سرعة نقرأ قوله تعالى عن القرية الظالمة :

قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا

غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ (الذاريات)

وانظر الى السرعة في الانتقال من حديثهم مع ابراهيم ، الى عذاب المسرفين ونجاة المؤمنين !

ولك ان تدرك سرعة الايقاع ، اذا نظرت الى تكثيف قصة موسى ، وكيف ان الهدف من الغرض السريع واحد ، وهو سرعة اخذ ربك القرى وهى ظالمة لأوليائه :

وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ (الذاريات)

وهكذا تتعاقب قصص عاد وثمود . حتى نوح ، تأتي قصته في آية واحدة

وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾

(الذاريات)

ثم دعوة فيها نفس الايقاع للمؤمنين :

فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ (الذاريات)

ويأتي في ختام السورة انذار مقابل للانذار الاول :

فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾ (الذاريات)

حتى لفظ « يستعجلون » جاء في اولها وآخرها ، متناغما مع : الذاريات في سرعتها ، فراغ الى اهله ، ففروا الى الله.. وكأن وعد الاخرة حاضر يكاد يلمس باليدين ، ومن قبله انتصار الله لعباده ، وسرعة اخذه الطاغين .

٢ ـــ ومن سورة الذاريات ننتقل الى سورة طه :

واذا كان محورها الاساسي قصة موسى مع مدخل يخاطب الله فيه رسوله ، وتعقيب بقصة آدم ثم خاتمة ، فانك تحس انها « مناجاة » بين الله ورسوله .

طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ (طه)

موسيقية السورة . الفواصل . اسلوب الخطاب ، كأن يد الرحمة تمر على قلب المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وتملؤه سكينة . والانتقال الى قصة موسى تحس فيه نفس المسار :

وَهَلْ أَتَىٰكَ

حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ (طه)

وتستطيع العودة الى السورة لتحس هذا التدرج مع الرسول في عرض القضية ، والترفق في عرض الرسالة : آنست نارا . قبس . هدى ..

فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ (طه)

وحتى الاستعداد للقاء فرعون ، ورحمة الله بموسى وهو يشد أزره بأخيه ، ويعطيه اكثر من معجزة : معجزة تنفصل عنه وهى العصا ومعجزة لا تنفصل وهى اليد . وتتوالى المشاهد ، وكلها تأييد ورعاية ، لتربط على قلب الرسول وهو في طريقه في ابلاغ رسالة ربه

وفي قصة آدم تجد وضوح المغفرة والتوبة بعد الخطيئة كما تجده من قبل في رعاية الله له في الجنة :

إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ (طه)

وبعد الخطيئة :

وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾
ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ (طه)

وينزل آدم ومعه من الله ، بعد الهداية ، وعد بهداية ابنائه :

قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ (طه)

وفي ختام السورة انذار للكافرين وبشرى للمهتدين . ويتكرر لفظ هدى في آخرها كما جاء في اوائلها وسياقها :

قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾ (طه)

٣ ــ نعرض زاوية ثالثة من سورة القصص :

في المطلع جلال ورهبة وتصوير معسكرين ، في ايقاع جليل تكاد ان تسمع فيه مسار الجيش وأنين المستضعفين ، وطول الصراع بين الايمان والطغيان :

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتۡلُواْ
عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٣﴾
إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ
طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ
مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ
فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾
وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا
مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ﴿٦﴾ (القصص)

ومع بروز اطراف الصراع واهدافه ، تتساءل عن القائد الذي سيدير هذا الصراع امام فرعون . أين هو ؟ ما عمره ؟ وما كفاءته ؟ فاذا بك تقرأ في الاية التالية مباشرة :

وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾

وتسير القصة وتجد فيها تفاصيل تربية موسى وكيف رعته امرأة فرعون ، وكيف انقذه ناصح امين من قوم فرعون ويمضي سنوات في اهل مدين ، ثم يكلمه الله في سيناء وتبدأ مرحلة جديدة من الصراع بينه وبين الملأ من قوم فرعون . هذا البسط في القصة يتبعه قول الله مخاطبا رسوله : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ (القصص)

ان كلمات : القرون الاولى،تطاول عليهم العمر،تحمل الى النفس المسامع والقارىء طول الصراع بين الايمان والجحود .

وترد في السورة بعد هذا قصة قارون و « كان من قوم موسى فبغى عليهم » لتبين أن الحق لم يكن مرتبطا بقوم ولا عرق : فمن قوم موسى البغاة ، ومن قوم فرعون المؤمنون . مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا

(الاسراء : ١٥)

ويأتي ختام السورة محصلة للصراع فيها :

وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

هذه نماذج تبين التركيز على زوايا ثلاث من اهداف القصص القرآني :

١ ـــ انتصار الله للمؤمنين من الكافرين : في سورة الذاريات .

٢ ـــ الربط على قلب الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين : في سورة طه .

٣ ـــ شدة الصراع بين الايمان والكفر : في سورة القصص .

وهناك اهداف ومناهج اخرى غير هذه ، ولكن المقصود ـــ

في هذه المرحلة ـــ بيان تعدد زوايا الرؤية في عرض الاحداث ، ومع تعدد هذه الزوايا تسقط قضية التكرار ليحل محلها التكامل وان هناك وحدة في القصة ، ووحدة في السورة مع تعدد القصص فيها[١٣] وهو منهج تفرد به القرآ ن الكريم في عرض الاحداث .

رابعا : الأشخاص والابطال :

أسماء الاسفار والسور :

أطلق الطبري على كتابه اسم « تاريخ الرسل والملوك » ، ومن قبل نقرأ في العهد القديم : اسفار « الملوك » و « القضاه » واسفارا تحمل اسماء انبياء بني اسرائيل ، وتحمل الاناجيل الاربعة اسماء كاتبيها : متى . ومرقس . ولوقا . ويوحنا . اما اعمال الرسل فيحمل كل منها اسم صاحبها مع اشارة الى المكان الذي وجهت اليه الرسالة او قيلت فيه .

---

(١٣) في العرض العام للقصة كوحدة ، انظر :

ـــ عبد الوهاب النجار : قصص الانبياء . ط الحلبي . القاهرة ١٣٨٦هـ ـــ ١٩٦٦م .

ـــ وفي عرض الوحدة الفنية للسورة وزوايا الرؤية . انظر : محمد احمد خلف الله : الفن القصصي في القرآن الكريم .

ـــ وفي مناقشة العلاقة بين الجانبين الفني والصدق التاريخي ، انظر : عبد الكريم الخطيب : القصص القرآني : في منطوقه من ص ٢٩٧ الى ص ٣٣٩ . دار الفكر العربي . القاهرة . ١٣٨٤ هـ ـــ ١٩٦٥ م .

ـــ وفي ترتيب القرآن وتناسب سوره : السيوطي: تناسق الدرر في تناسب السور . وقد نشره عبد القادر عطا باسم : « اسرار ترتيب القرآن » مع مقدمه طويلة وتحقيق . دار الاعتصام . القاهرة . ١٣٩٨هـ ـــ ١٩٧٨م .

وبمراجعة فهرس سور القرآن الكريم نرى تنوعا كبيرا في اسمائها له دلالاته وقد يكون للسورة اسم واحد وهو كثير ، وقد يكون لها اسمان فأكثر من ذلك (١٤) . كالفاتحة وهي ام الكتاب . وسورة براءة وهي التوبة . وسورة غافر وهي المؤمن (١٥) وقد ثبتت أسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والاثار وتتمثل في هذا التنوع الآفاق الاتية :

أولا : عالم الغيب وارتباطه بعالم الشهادة :

١ ــ اسماء الله الحسنى وصفاته : فاطر . غافر . الرحمن .
٢ ــ اسماء الانبياء وصفاتهم ومعجزاتهم وآلهم : آل عمران . يونس . هود . يوسف . ابراهيم . مريم . لقمان . محمد . الاسراء . المزمل . المدثر .
٣ ــ الكتب التي انزلها الله : الفرقان .
٤ ــ الملائكة : الصافات .

بعبارة اخرى : الخالق . الرسل . الكتب . الملائكة .

ثانيا : الكون والارض .

٥ ــ ظاهرات فلكية وجوية : البروج . النجم . القمر . النور . الرعد . الذاريات .
٦ ــ الزمان واجزاؤه : العصر . الفجر . الفلق . الضحى . الليل .

---

(١٤) السيوطي : الاتقان ١ : ٥٢ .

(١٥) نفس المرجع ١ : ٥٤ .

٧ ــ الارض واجزاؤها : الحجر (ديار ثمود) . الاحقاف (ديار عاد) . الطور (في سيناء) . الكهف .
٨ ــ الصخور والمعادن : الحديد .

ثالثا : الحياة النباتية والحيوانية :

٩ ــ البقرة . الانعام . النمل . العنكبوت . النحل . الفيل . التين .

رابعــا : الحياة الانسانية :

١٠ ــ خلق وحياة الانسان : العلق . الانسان . الناس .
١١ ــ المدن التجمعات الانسانية : البلد . قريش . سبأ . الروم .

خامسا : العقيدة والعبادات والمعاملات :

١٢ ــ العقيدة والعبادات : المؤمنون . السجدة . الاخلاص .

١٣ ــ المعاملات ونظام الاسرة والاخلاق : النساء . المنافقون . المطففين . التحريم . الطلاق . المجادلة .

سادسا : الجهاد والشئون الدولية :

١٤ ــ الانفال . براءة . الفتح . العاديات . النصر .

سابعا : في الآخرة والجزاء :

١٥ ــ الاعراف . الجاثية . الواقعة . التغابن . القيامة . النبأ . التكوير . الانفطار . الانشقاق . الغاشية . الزلزلة . القارعة .

ففي اسماء السور شمول يتلاءم مع نظرة القرآن الكلية لأمر الوجود . النظرة التي تضم المبدأ والمعاد . والانسان والكون ، ومناشط الحياة الانسانية ، ويتحدث فيها القرآن عما دق من الخلق كالنمل ، كما يتحدث عما عظم كالسماء ذات البروج ومواقع النجوم .

تكامل النماذج :

وتنعكس هذه النظرة على شخوص التاريخ في القرآن وابطاله . فالقرآن ليس مجرد تاريخ انبياء ولا تاريخ ملوك . من الانبياء من اغفل القرآن ذكره :

مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ

(غافر : ٧٨)

وعنايته بالملوك والحكام محدودة : نماذج اعطاها تبين مشاهد من الحكم ، هى لمن بعدهم عظة وذكرى .

وشخوص القرآن مجموعة بشرية متكاملة بحيث كانت مصادر للالهام وأسوة للناس مصداقا لقوله تعالى فيما قص على رسوله من الانبياء :

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ

(الانعام : ٩٠) .

واذا كان المصطفى ـــ وهو رحمة الله المهداة وخاتم النبيين ـــ يدعوه ربه الى الاهتداء بمن سبق من الانبياء ، فما احرانا ان نطيل الوقوف عند هذه النماذج الانسانية ، ومن ارتبط بقصصهم . او جاهد على فترة منهم .

العمر :

في الانبياء نجد نماذج متكاملة من الاعمار : طفولة عيسى ، وشباب ابراهيم ، وكهولة محمد ، ثم شيخوخة ابراهيم ونوح . ويقابل هذا من النساء : طفولة مريم وشبابها، ونضج امرأة فرعون وايمانها ، ثم زوج ابراهيم وقد تقدمت بها السن .

قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ (هود) .

المؤمن في أسرته :

ونقرأ نماذج متعددة من الأسر وموقع المؤمن فيها : نجد الابن المؤمن والأب الكافر في قصة ابراهيم . والاب المؤمن والابن الكافر في قصة نوح . والزوج الصالح والزوجة غير الصالحة في قصة نوح أيضاً . والزوجة المؤمنة والزوج الكافر في قصة امرأة فرعون .

والأب الصالح وقد توزع ابناؤه بين الصلاح والحسد والاحقاد كيوسف وأخوتــه ، حتى اكرم الله الجميع بالتوبة وجمع الشمل .

رحمة الله .

ونرى في القصص القرآني رحمة الله وقد ادركت رضيعا لا يدرك من أمره شيئا :

وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾

(القصص)

وشابا وقف وحيدا يدافع عن الحق

قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾

(الانبياء)

ثم كان من قومه ان :

قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾

(الانبياء) .

وتدرك شيخا كبيرا امضى السنين داعيا الى الله فلم يستجب له الا القليل . يقول الله تعالى عن نوح :

فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾

(الاعراف) .

وقد تدرك الرحمة وحيدا كيونس عندما التقمه الحوت ثم نبذه في العراء ، او جمعا محصورا بين الماء والعدو :

فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ
قَالَ أَصْحَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾

(الشعراء)

وقد تكون النجاة براً ، كما في هجرة المصطفى من مكة الى المدينة ، أو بحرا كما في قصة نوح والسفين .

الانتصار وعلاقته بحياة القائد :

وقد يرى القائد النصر بعينيه كما في حياة المصطفى ﷺ :

إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ

فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾ (النصر) .

وقد يعيش عمره مجاهدا ولا يشهد وراءه الا القليل من المؤمنين . وفي قصص موسى وعيسى عبرة . يقول الله على لسان موسى : قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ (المائدة) .

الاختبار :

وقد يختبر الله الانسان في صحته وماله كما في قصة أيوب . وفي الهجرة من وطنه وهى قدر اكثر من نبي ورسول . وقد تنهي حياته بأن يموت شهيدا كما في قصة يحيى . وقد يلقى في السجن كيوسف . وقد يختبره الله باقبال الدنيا كسليمان :

قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ

(النمل : ٤٠) .

وقد يبتلي بأن يصد عنه قومه ويرموه بالجنون والسحر والكهانة والكذب . وقد لقى الرسول هذا كله واحتمله ، ونفى القرآن الكريم هذا كله ، وسجل الصراع الشديد وصبر الرسول

والمؤمنين معه . يقول تعالى : أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ (البقرة)

النصـــر :

ومع هذه الاختبارات يسجل القرآن الكريم النصر للايمان والمؤمنين إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾

(غافر)

ويعتبر هذا وعدا إلهيا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾

(الروم)

هذا اذا اخذوا بأسباب النصر من مادية ومعنوية ؛ وربطوا بين العقيدة والسلوك- وبغير هذا لا ينطبق عليهم تعريف الايمان كما وضحه الرسول ﷺ في حديثه الشريف : عن سفيان بن عبد

الله الثقفي قال : قلت يا رسول الله ، قل لي في الاسلام قولا لا أسأل عنه احدا بعدك . قال قل : آمنت بالله ثم استقم . اخرجه مسلم .

قصة الاب الاول : نقطة البدء في التاريخ الانساني :

وكل انسان يشعر بارتباطه بالأب الاول ومنه يبدأ التاريخ الانساني في القرآن :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) (النساء)

والقرآن يخاطبنا بقوله :

يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ (الأعراف ٢٧)

وفي سفر التكوين نقرأ قصة آدم بعد خلق السماوات والارض ، ونقرؤها في مطالع سورة البقرة ، بعد الفاتحة ، وبيان

صنوف الناس : المؤمن والكافر والمنافق ، ودعوة الله الناس جميعا الى عبادته .

ولكن في القصة جانبا يحتاج من دارس التاريخ الى وقفة . فهنا نقطة البدء : التي يلتقي فيها عرض القرآن بالعهد القديم في جوانب ، ويختلفان في جوانب جوهرية :

الاتفاق في أب اول وأم أولى ، وفي كرامة البدء ، ثم في تعرض الابوين للاختبار .

ولكن نقطة الخلاف الجوهرية في « التوبة » : ان الله سبحانه وتعالى تاب على آدم وغفر له ذنبه :

فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ
فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ (البقرة)

وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ
رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ (طه)

جاءت التوبة فيما نزل من القرآن بمكة في سورة طه ، وما نزل في المدينة في سورة البقرة .

كانت عند آدم وزوجه حرية الاختيار . وكانت تجربته الأولى

نجاحا : عندما علمه ربه الاسماء ، ثم أمره ان يخبر بها الملائكة ، فقام بأمر الله . ما ضل ولا نسى :

وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا
ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ
إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ
إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ
أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ
إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ
تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ (البقرة) .

وجاءت بعد هذا حرية الاختيار .. وهى التجربة الثانية :

فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن
سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن
تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ
إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ (الاعراف ٢٠ــ٢٢)

وكانت التجربة صراعا بين الطموح بكل مغرياته ، وبين صريح أمر الله . كانت تجربة أولى في حرية الاختيار ، تاب منها آدم وقبل الله توبته ، وتلقى من الله كلماته ، وجعله خليفته في الأرض . وهو نبيٌّ مكرم . هذا بعد أن كفل له في الجنة امورا هى حاجات الانسان الاساسية .

إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ (طه)

والجوع ذل الباطن ، والعرى ذل الظاهر ، والظمأ حر الباطن ، والضحيان (وهو البروز للشمس) حر الظاهر ، كما يقول الامام ابن كثير[١٦] . ولكن امتد طموح آدم الى ماوراء ذلك : الملائكية والخلود ، فوق ما كرمه الله به من العلم .

فحياة آدم في الجنة كانت مدرسة ومرحلة تجارب .
اما الخلافة عن الله فهى في الارض .

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً (البقرة : ٣٠) .

التدريب هناك والعمل هنا . والحساب هنا وهناك . وثمرة العمل يبدو بعضها في الدنيا ، وبعضها في الآخرة .

مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ

---

(١٦) تفسير ابن كثير : ٤ : ٥٤٢ ط . الاندلس — بيروت .

وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ (النحل) .

ويأتي الانسان الى هذه الدنيا بصحيفة بيضاء ليست فيها خطيئة سابقة . فتوبة الله على آدم سبقت•وكلمات الله تهديه الطريق . لا لعنة . لا عقوبة . لا عداوة بين الرجل والمرأة . ولا بين الانسان والارض . ولا بين الانسان والحيوان . وهذه الصورة القرآنية تخالف عما يصوره الاصحاح الثالث من سفر التكوين .

الانسان والارض :

الانسان ابن هذه الارض : وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ (نوح)

ويدعونا الله الى السير فيها : هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ (الملك) .

تتابع الرسل :

ويأتي الرسول بعد الرسول . وكل واحد منهم يقاوم فسادا في المجتمع . ويحاول ان يعيد الناس الى التوحيد والاستقامة . والقرآن يعتبرهم جميعا نسقا واحدا مهما تباعدت بينهم الاماكن والازمان . يقول الله تعالى بعد ان قص علينا من أنباء الرسل ، من ابراهيم الى عيسى :

إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾

(الانبياء) .

ويأتي ختام سورة الانبياء وصفا لمشاهدة الآخرة والجزاء ، مطابقا لأوائلها « اقترب للناس حسابهم » ثم اشارة الى بدء الخلق ، وايات الله الداعية الى الايمان ، وعمران الحياة بالعمل الصالح .

فقصص الانبياء ـــ بكل اجمال ـــ تصوير متكامل لبناء الحياة : توحيدا لله ونبذا لعبادة الاصنام والشهوات ، وعدلا بين الناس ، واجتنابا للظلم ، وصبرا كريما على الاذى ، وعونا للضعيف ، وشجاعة في كلمة الحق ..

خاتم النبيين :

واذا كانت حياة كل نبي قد تميزت بميزة او عدد من المميزات التي برزت اكثر من غيرها ، كالصبر عند ايوب ، وقوة الحجة عند شعيب ، ومقاومة الكفر والظلم بالحلم والكلمة الطيبة والمعجزة عند عيسى .

فان حياة المصطفى عليه الصلاة والسلام جاءت جامعة لجوانب الجهاد باوسع مدلولاته : بالقلب واللسان واليد وتكوين الفرد والمجتمع والدولة ، والدفاع عنها داخليا ضد المؤامرات والنفاق ، وخارجيا بالنشاط السياسي والعسكري ، مع العناية بالبناء الاخلاقي والاجتماعي والاقتصادي . جاءت هذه الحياة تجمع ما في حياة الانبياء السابقين ، كما يقول مولانا سليمان الندوي ، لتكون حياة النبي الخاتم[١٧] .

عصمة الانبياء وبشريتهم :

ويدور قصص الانبياء في القرآن في اطار من العصمة التي

---

(١٧) سليمان الندوي : الرسالة المحمدية : وهى ثماني محاضرات في السيرة النبوية ورسالة الاسلام . القاها في مدراس بالهند ١٣٤٤ هـ / من ص ١٣٤ ــ ١٣٧ . ص ١٤٤ ــ ١٥١ تحت عنوان : ما اعطى الله الرسل جميعا متفرقين قد اوتيه محمد (ﷺ) وحده . مقارنات بين النبي ﷺ واخوانه الانبياء . مدرسة محمد (ﷺ) كانت جامعة للطوائف وعامة الامم . مكتبة الفتح . دمشق ١٣٩٣ هـ ــ ١٩٧٣ م .

يتمثل فيها جانبان : بشرية الرسول واتباعة لأوامر الله :

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ (الكهف)

ويؤكد القرآن بشرية الرسل في اكثر من موضع من كتابه :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ ﴾

(الفرقان : ٢٠)

ويصدق عليهم قانون الموت والحياة :

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (الزمر)

وقولة تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ ﴾

(آل عمران : ١٤٤)

وهم جميعا عباد الله ، خلقهم من تراب :

إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ (آل عمران)

والله اصطفاهم :

* إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ (آل عمران)

وفي اطار هذه العصمة النبوية البشرية ، تتحرك احداث قصص الانبياء في القرآن .

وفي هذا تخالف عن جانب مما نسبته اسفار العهد القديم الى الانبياء ، ومن نماذج ذلك قصص لوط وداود وسليمان ، وما فيها من امور تتعلق بالسلوك الشخصي والاخلاقي وحرمة الجار والرضا بعبادة الاوثان في بيوت الانبياء[١٨] .

---

(١٨) انظر : د . بطرس عبد الملك وآخرون : قاموس الكتاب المقدس . بيروت ١٩٦٤ (ويعقب على خطايا داود بقوله : ومع ان داود ارتكب في بعض الاحيان خطايا يندي لها الجبين خجلا ، الا اننا اذا نظرنا الى نسبة النضوج الروحي الضئيلة التي كانت سائدة في ذلك العصر لرأينا في هذا شيئا مما

الابطال المجهولون :

ومما تفرد به القرآن عنايته بالابطال المجهولين في التاريخ . ولك ان تعود الى تاريخ الطبري « تاريخ الرسل والملوك » والى اسفار الملوك والقضاة في العهد القديم ، والى قصص الابطال في الملاحم القديمة .

ويخصص القرآن لبعض الابطال المجهولين عددا من الآيات ، وتفاصيل من الحوار واشادة بالمواقف ، ويسلط عليهم من الاضواء اكثر مما يسلط على بعض الانبياء .

وقد حاول بعض المؤرخين والباحثين تقصي اخبار هؤلاء الابطال المجهولين : اين عاشوا ؟ اسماؤهم ؟ ومن كانوا على عهده من الملوك ؟ وانتهت الاجتهادات ببعضهم الى آراء ، كما في دراسة مولانا ابو الكلام آزاد عن ذي القرنين [١٩] وقد جاءت في سورة الكهف . وكذلك الدراسات المتعلقة باصحاب الكهف . ولا

يخفف ذنبه الى حد ما) ص ٣٦٦ . ومن ذلك خطيئته في حق اوريا الحثي (١ ملوك ١٥ : ٥) وخطيئة لوط (١٩ : ٣٠ — ٣٨) ومع انها جاءت صريحة في سفر التكوين الا ان قاموس الكتاب المقدس عندما عرضها قال : وتحت تأثير المسكر ارتكب لوط خطيئة الزنى مع من حرم عليه الزواج منهن ١ هـ ص ٨٢٢ . واستحى الكاتب ان يذكر النص صريحا . اما القران الكريم فيجعل عصمة الانبياء وطهرهم والايمان بهم جزءا من العقيدة . « لا نفرق بين احد من رسله » (البقرة : ٢٨٥) .

(١٩) مولانا ابو الكلام ازاد : شخصية ذي القرنين المذكورة في القرآن . مجلة ثقافية الهند ص ٢٢ سبتمبر ١٩٥٠ دلهي الجديدة الهند .

زالت هذه القصة مصدر الهام لكثير من الكتاب شرقا وغربا [٢٠] ولكن الذي يعنينا من هذا كله ، ونود ان نقف عنده ، ان القرآن الكريم تجاوز في هذه المجموعة من القصص بعض عناصر التحديد من الاسماء والاماكن والازمنة ، وان تباين هذا التجاوز من قصة الى اخرى . واكثر نماذج الابطال المجهولين تفصيلا في القرآن هي « مؤمن آل فرعون » .

وتبدأ قصته من قوله تعالى : وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ (غافر)

---

(٢٠) تراجع التعليقات والشروح على قصة اهل الكهف وذي القرنين في الترجمة الانجليزية لمعاني القرآن والشروح التاريخية والجغرافية في :

MAULANA ABDUL MAJID DARYABADI :
THE HOLY QURAN, VOL. 1 pp. 276-286 .
TAG COMPANY . KARACHI, PQKISTAN, 1971

وهو يذكر المراجع التي استند اليها في ترجيح وجهة نظرة في الاشخاص والاماكن . وانظر ايضا وجهة نظر اخرى في :ـــ

ـــ وفيق وفا الدجاني: اكتشاف اهل الكهف ، منشورات مؤسسة المعارف . بيروت ١٩٦٤ . ويذهب الى انه الكهف القريب من عمان عاصمة الاردن ، مع مناقشة الرأي القائل بأنه قرب افسوس في آسيا الصغرى (عبد المجيد الدار يابادي المرجع السابق ١ : ٢٧٦) وان كان القرآن يوجه عنايته اساسا الى العبرة الاخلاقية والاجتماعية من القصة دون تحديد الاشخاص ، الا حيث تقتضي العبرة ذكرهم .

الى قوله تعالى : ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾

(غافر)

ثم ذكر ربنا بعد ختام القصة ومشاهدالقيامة ، قاعدة وثيقة الصلة بكل داع الى الله : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ ﴾ (غافر)

والقصة مما تفرد به القرآن . وهى درس في الدفاع عن الحق والدعوة اليه . لجأ فيها المؤمن الى تذكير قومه بالآخرة ، ثم ذكرهم بقوم نوح وعاد وثمود ، وربط جحودهم بما حدث من آبائهم بعد وفاة يوسف « حتى اذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده

رسولا » وكيف وقف المؤمن يعارض فرعون وهو يأمر وزيره هامان ان يبني له صرحا يبلغ به اسباب السماوات ليطلع الى إله موسى . ثم دعا قوم فرعون الى اتباع الحق . وصرح الرجل بايمانه بعد ان كان يكتمه ، وحذر قومه مغبة سيئات ما مكروا . ونجى الله المؤمن وحاق بآل فرعون سوء العذاب .

ونقرأ في سورة يس قصة مؤمن دافع عن رسل عيسى الى مدينته :

وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ (يس)

وفي سورة الكهف اكثر من قصة : اصحاب الكهف . قصة صاحب الجنتين الذي اغتر بما عنده ويأتي صاحبه المؤمن يبصره بالرشد ويحذره مغبة الجحود ، وقصة العبد الصالح الذي تعلم منه موسى ، ثم اخيرا قصة ذي القرنين .

ومع ان المدار الرئيسي لهذه القصص جميعا هو الايمان بالله تعالى ، الا ان مناشط هؤلاء الابطال في المجتمع متنوعة ، وتمثل الحرف الرئيسية : زراعة وصناعة وتشييدا .

وهذه البطولات المجهولة ممتدة ولا تزال تظهر في نصرة الحق .

يقول الله تعالى : مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ (الاحزاب)

وجزاء الله لكل عامل من هؤلاء قائم :

فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾

(آل عمران)

والايات دعوة الى متابعة المسيرة في بناء الحياة على الخير وعمرانها بالعمل الصالح وهى تنير السبيل امام بطولات جديدة دون ان تقصرها على مواقع محددة من المجتمع .

وصفوة القول ان البطولة في القرآن لا تقتصر على الانبياء ، وان كان لهم فيه النصيب الأوفى ، ولا تقف كثيرا عند الملوك ، وانما تمتد مظلتها لتشمل الابطال المجهولين والجموع المؤمنة .

واذا كانت العناية قد زادت، في الاتجاهات التاريخية المعاصرة، بحركات الشعوب والجماعات الانسانية ، وفيها الكثير من البطولات المجهولة ، فان قطاعات التاريخ التي عرضها القرآن الكريم تضم هذا جميعا وتتسع له .

القسم الثاني

مناهج التفسير

بين التسجيل والتفسير :

يبدو التأثر بالقرآن الكريم في مناهج كبار مؤرخي الاسلام . وسأذكر نموذجين أساسيين :

الاول : الطبري (٢٢٤ ـــ ٣١٠ هـ) في كتابه « تاريخ الرسل والملوك) .

والثاني : ابن خلدون (٧٣٢ ـــ ٨٠٨ هـ) في مقدمة تاريخه .

وكانت عناية الطبري موجهة اساسا الى تسجيل الوقائع التاريخية ، ونسبة كل رواية الى صاحبها فتاريخ الطبري « كتاب رواية » يقول في مقدمته :

« وليعلم الناظر في كتابنا هذا ان اعتمادي في كل ما احضرت ذكره فيه ، مما شرطت اني راسمه فيه ، انما هو على ما رويت من الاخبار التي انا ذاكرها فيه ، والآثار التي انا مسندها الى رواتها فيه ، دون ما ادرك بحجج العقول ، واستنبط بفكر النفوس ، الا اليسير القليل منه ، اذ كان العلم بما كان من اخبار الماضين ، وما هو كائن من أنباء الحادثين ، غير واصل الى من لم يشاهدهم ولم يدرك زمانهم ، الا باخبار المخرجين ونقل الناقلين ، دون الاستخراج بالعقول والاستنباط بفكر النفوس . فما يكن في كتابي هذا من خبر يستنكره قارئه او يستشنعه سامعه ، من اجل

انه لم يعرف له وجها من الصحة ، ولا معنى في الحقيقة فليعلم انه لم يؤت في ذلك من قبلنا ، وانما أُتي من قبل بعض ناقليه الينا ، وأنا انما ادينا ذلك على نحو ما أدى الينا »[٢١] .

ويستوقفنا من هذا النص كيف كرر فيه الطبري اقتصاره على المروي ، « دون ما أدرك بحجج العقول ، واستنبط بفكر النفوس » ، وان جهده كان التحري في امانة النقل وهي مسئوليته . اما المتن نفسه ومضمون الخبر فعهدته على ناقله اليه ، وان كان فيه ما يستنكره القارىء .

أما ابن خلدون فكان له موقف ايجابي في نقد المتن ، ثم خطوة اوسع في قراءة التاريخ . ولنذكر ان ابن خلدون عاش في القرن الثامن الهجري ومطالع التاسع ، بينما كانت حياة الطبري في القرن الثالث ومطالع الرابع وان ابن خلدون عاش التاريخ دراسة وممارسة ، واحتك بالحكم ودخل معاركه ، في حياة عريضة ، جعلت له موقف الناقدلما يقرأ ، والمحاول الوصول الى قواعد العمران البشري فيما مارس وما قرأ ، وان ظل كتاب الطبري المورد الاساسي لكل مؤرخ فهو « اوفي عمل تاريخي بين مصنفات العرب ، اقامه على منهج مرسوم ، وساقه في طريق استقرائي شامل : بلغت فيه الرواية مبلغا من الثقة والامانة والاتقان ، اكمل به ما قام به المؤرخون قبله ، كاليعقوبي ، والبلاذري ، والواقدي ، وابن سعد ، ومهدّ السبيل لمن جاء بعده كالمسعودي ، وابن مسكويه ، وابن الأثير ، وابن خلدون »[٢٢] .

---

(٢١) ابن جرير الطبري : تاريخ الرسل والملوك ١ : ٧ — ٨ ط المعارف . القاهرة .

(٢٢) نفس المرجع : من مقدمة محمد ابو الفضل ابراهيم لتحقيق تاريخ الطبري ١ :٢١ .

وتعريف ابن خلدون للتاريخ يحدد موقفه منه :

« فان فن التاريخ من الفنون التي تتداولها الأمم والاجيال ، وتشد اليه الركائب والرحال . اذ هو في ظاهره لا يزيد على اخبار عن الايام والدول ، والسوابق من القرون الأُوَل . ويؤدي الينا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الاحوال . وفي باطنه نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات ومباديها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع واسبابها عميق »(٢٣) .

فمنهج ابن خلدون : معرفة الاخبار وتحقيقها وتعليلها . وهو يدافع عن اضافة التحقيق الى معرفة الاخبار فيقول :

« ان فحول المؤرخين في الاسلام قد استوعبوا اخبار الايام وجمعوها . وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وهموا فيها او ابتدعوها ، واقتفى تلك الآثار الكثير ممن بعدهم واتبعوها وادوها الينا كما سمعوها ، ولم يلاحظوا اسباب الوقائع والاحوال ولم يراعوها ، ولا رفضوا ترهات الأحداث ولا دفعوها . فالتحقيق قليل »(٢٤) .

ويمثل ابن خلدون بهذا مرحلة جديدة ، لا تقف عند ابعاد مرحلة الطبري، مع علو شأنه . وهو يذكر هؤلاء الاسلاف بالاسم ويذكر منهجهم ، ثم من جاءوا بعدهم فعنوا بالتواريخ الخاصة ، بعد ان كانت عناية الاسلاف بالتواريخ العامة . ومن

---

(٢٣) مقدمة ابن خلدون بتحقيق علي عبد الواحد وافي ١ : ٢٠٩ ط . البيان العربي . القاهرة ١٩٥٧ .

(٢٤) نفس المكان .

بعد هؤلاء جاء عصر التقليد . ودعاه هذا الى ان يضع كتابه :

« فأنشأت في التاريخ كتابا ، رفعت به عن احوال من الاجيال حجابا ، وفصلته في الاخبار والاعتبار بابا بابا ، وابديت فيه لأولية الدول والعمران عللا واسبابا ، وبنيته على اخبار الامم الذين عمروا المغرب .. وهم العرب والبربر .. فهذبت مناحيه .. وسلكت في ترتيبه وتبويبه مسلكا غريبا .. وشرحت فيه من احوال العمران والتمدن وما يعرض في الاجتماع الانساني وشئون في العوارض الذاتية ، ما يمتعك بعلل الكوائن واسبابها »[٢٥] .

.وتبدو عبقرية ابن خلدون في دراسته الاجتماع الانساني وشئون العمران ، وهى البحوث التي يطلق عليها الان اسم « علم الاجتماع » وقد وقف على هذه البحوث مقدمة مؤلفه في التاريخ . والى هذه الناحية اهم اسباب شهرته وتخليد اسمه بين قادة الفكر في العالم فقد تمخضت بحوثه هذه عن علم جديد لم يسبق اليه ...[٢٦] .

عندنا — اذن — دائرتان اساسيتان متداخلتان يتحرك فيهما المؤرخون المسلمون :

اولا : الخبر واختباره وتحقيقه .

ثانيا : التفسير والربط ومحاولة استخراج القوانين

ولا تكاد تخرج حركة المؤرخين عنهما . فلننظر الى مراكز

---

(٢٥) نفس المرجع ١ : ٢١٢ —٢١٣ .

(٢٦) نفس المرجع : مقدمة المحقق ١ : ٨٥ .

هاتين الدائرتين في القرآن الكريم ، ونرى كيف تحرك مؤرخونا من المراكز على خطوط تأخذ في الطول ، وتتسع — مع طولها — محيطات دوائر العمل ، وان ظلت امينة الارتباط بمراكز الدوائر .

أولا — الخبر واختياره وتحقيقه

تعبير القرآن عن التاريخ : اكثر من تعبير يستخدمه القرآن للخبر : القصص . الأنباء . البلاغ . الذكر . الحديث . وقد يأتي التعبير مجردا او موصوفا .

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ
أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ
(يوسف : ٣)

وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ
مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ
الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ (هود)

هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا
أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾
(ابراهيم)

وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾

(الزخرف)

* وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾

(الاحقاف)

ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ

(الزمر : ٢٣)

على ان هناك صفة حرص القرآن على نفيها عنه ، وهى انه اساطير الاولين . وهى التي حاول مشركو قريش وصف القرآن بها ، وقدوردت فيه تسع مرات ، كلها منسوبة الى الكفار والمشركين . من ذلك قوله تعالى عنهم :

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ

إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ (الانعام)

بينما ترد اشتقاقات اخرى من مادة سطر ، مقبولة ، مثل قوله تعالى : نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ﴿١﴾ (القلم)

وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَـٰبٍ مَّسۡطُورٍ ﴿٢﴾ (الطور)

كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَـٰبِ مَسۡطُورًا ﴿٦﴾ (الاحزاب) .

والاساطير — لغة — تنصرف الى الاباطيل والاحاديث العجيبة[٢٧] . وبهذا ينفي القرآن عن نفسه ما عرفت به الاساطير من صفات ، مؤكدا انه الحق والصدق :

نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ (الكهف : ١٣)

ومن هذا « الحق » و « الصدق » في القول ينبع كل صدق في العمل التاريخي ، وأوله صدق الرواية . وتبدو هذه اروع ما تبدو في المحافظة على القرآن ذاته : فهو « كلام الله » :

وَإِنۡ أَحَدٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ (التوبة : ٦)

---

(٢٧) لسان العرب : مادة سطر . والاساطير الاباطيل . يقال : سطر فلان على فلان اذا زخرف له الاقاويل ونمقها .

وهو للناس هدى ونور وحياة :

وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ (الشورى)

توثيق خبر السماء : وقصة كتابة القرآن من عهد النبي عليه الصلاة والسلام آية آية ، وترتيبه بأمرالرسول ، كما يأمره الوحي ، وجمعه ، وحفظه مجموعا ، ثم جمع المسلمين على مصحف جامع ، والصحابة الذين قاموا بهذه المسئوليات جميعا ، فردا فردا ، والجهود العلمية التي اتبعوها . كل اولئك يمثل قصة غير مسبوقة ولا ملحوقة في حفظ الكتاب الأكبر لأي دين من الاديان . والقرآن — في الاسلام — هو المصدر الأعلى للتاريخ .

كان الصحابة يسيرون الى هذه الغاية في نور من قوله تعالى :

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾
(الحجر)

فكانوا ادوات العناية الآلهية في حفظ كتاب الله . ثم هو الكتاب الاكبر لدين ، يستطيع المؤمنون به ، حتى من سن الطفولة وصدر الشباب ، ان يحفظوه جميعا في الصدور .

في القرآن : الكلام وحي ، والترتيب وحي . ولقد كان القرآن ينزل على الرسول مرتبطا بالحوادث وتطور الدعوة . فاذا قام كتاب الوحي بكتابة ما ينزل من القرآن امرهم الرسول قائلا : ضعوها بعد آية كذا ، او بعد سورة كذا . ويحدد لهم موضعها .

ولما كان نزول القرآن مستمرا في حياة الرسول ، كان موضع كل آية يتحدد مع نزولها ، دون ارتباط بالترتيب التاريخي او طول السور . (٢٨)

وينقل « دراز »نصوصا من اقوال المستشرقين الذين عنوا بهذا الامر :

ــ فعن (لوبلوا) في كتاب « القرآن والتوراة العبرية : « من الذي لم يتمنّ لو ان احدا من تلاميذ عيسى الذين عاصروه قام بتدوين تعاليمه بعد وفاته مباشرة » . وقوله « ان القرآن هو اليوم الكتاب الرباني الوحيد الذي ليس فيه أي تغيير يذكر » .

ــ وعن (نولدكه) قوله عن النص القرآني « انه احسن صورة من الكمال والمطابقة » .(٢٩)

فالمدرسة الاولى في الاسلام وفي تحقيق النص « هى المحافظة على نص القرآن الكريم » . ينطبق هذا على التاريخ كما ينطبق على غيره من العلوم النقلية والعقلية .

توثيق الحديث الشريف : وصاحبت هذا ثم ازدهرت مدرسة المحافظة على حديث النبي عليه الصلاة والسلام وكانت هذه

(٢٨) السيوطي : الاتقان ١ : ٦٣ .

(٢٩) محمد عبد الله دراز : مدخل الى القرآن الكريم . الفصل الثاني : =

معركة علمية ثانية . معركة بكل معاني الكلمة ، اقتضت ظهور علوم جديدة لم تكن معروفة من قبل ، ابرزها علم الرجال . وهو مجموعة من العلوم انفردت بها الحضارة الاسلامية في توثيق مصادرها ، وافادت منها في معالجة تاريخها وعلومها .

وما من شخص ارتبط بالحديث الشريف — من قريب او بعيد — الا تتبع علماء الرجال حياته وثقافته ورحلته : ممن اخذ العلم ؟ وأين ومتى لقى كلا منهم ؟ مستواه في الحفظ والضبط . ثبات هذا المستوى او اضطرابه . ما سبب الاضطراب : ضعف صحة ؟ ميل الى فئة أو نحلة ؟ ثم تتبع سلاسل السند التي ينقل عبرها الحديث ، ثم نقدها ، ونقد المتن نفسه . آفاق من المعرفة تفردت بها الحضارة الاسلامية ، وأعطت تحقيق النص وتوثيقه مكانته في عالم الاخلاق والعلم :

وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ (المائدة : ٨)

ومن دقة علمائنا ان العدالة لا تتوفر الا باجتماع امور كثيرة . اما الجرح فيثبت بشيء واحد . اي بقول شخص واحد ، لأن الجرح مقدم على التعديل ، فمن وثقه اشخاص ولكن طعن فيه شخص واحد ، قدم الجرح (اي الطعن) على التعديل (اي

═ كيف جمع نص التنزيل المحكم . ويذكر هذ الفصل اقوال المستشرقين في توثيق القرآن ص ٣٩ — ٤٠ . ط .دار القلم — الكويت ١٣٩٤ هـ — ١٩٧٤ م .

على شهادة الاشخاص الذين وثقوا هذا الراوي) وعليه تستبعد روايته[٣٠] .

وجاءت عمال مؤرخي الاسلام في ظل هذا الاخلاص بدءا بمعرفة الخبر وتحقيق النص والامانة في النقل . يقول عليه الصلاة والسلام :

« نضّر الله عبدا سمع مقالتي فحفظها ووعاها وأداها . فرب حامل فقه غير فقيه . ورب حامل فقه الى من هو افقه منه . ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم : اخلاص العمل لله ، والنصيحة للمسلمين ، ولزوم جماعتهم ، فان دعوتهم تحيط من وراءهم » (الشافعي عن ابن مسعود)[٣١] .

وكذلك ارتبط حفظ احاديث الرسول بتسجيلها :

فعن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال :

« كنت اكتب كل شيء سمعته من رسول الله (ﷺ) فنهتني قريش . وقالوا تكتب كل شيء ورسول الله (ﷺ) بشر يتكلم في الرضا والغضب ؟ فأمسكت عن الكتاب حتى ذكرت ذلك لرسول الله (ﷺ) فأومأ باصبعه الى فيه وقال : اكتب

---

(٣٠) مصطفى السباعي : السنة ومكانتها في التشريع . ويبين في الفصل الثالث ص ٩٠ ـــ ١٠٢ جهود العلماء في مقاومة حركة الوضع ، والفصل الرابع في ثمار هذه الجهود ص ١٠٣ ـــ ١٢٣ مع عناية بعلوم الحديث يلخص فيها ما ذكره الامام النووي في كتابه « التقريب » ط . المكتب الاسلامي بدمشق وبيروت ١٣٩٨ هـ ـــ ١٩٧٨ م .

(٣١) التبريزي : مشكاة المصابيح ١ : ٧٨ حديث رقم ٢٢٨ . ط المكتب الاسلامي ـــ دمشق ١٣٨٠ هـ ـــ ١٩٦١م .

فوالذي نفسي بيده مايخرج منه الا حقا » (اخرجه ابو داود)[٣٢] .

وعن ابي هريرة (رض) قال :

« شكا رجل من الانصار الى رسول الله (ﷺ) فقال : يا رسول الله اني لأسمع منك الحديث فيعجبني ولا احفظه . فقال (ﷺ) : استعن بيمينك وأومأ الى الخط » (أخرجه الترمذي)[٣٣] .

تحقيق الخبر في تاريخ العقيدة والانبياء : حدد القرآن موقفه من تاريخ العقيدة والانبياء — كما جاء في الكتب او العقائد السابقة بثلاثة امور :

الاول : تحرير العقيدة : فهى التوحيد الخالص :

ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ (آل عمران ٢ — ٣) .

وبهذا ينفي القرآن تأليه غير الله أو بنوته ، سواء كان هذا الغير : وثنا او ظاهرة طبيعية او انسانا .

---

(٣٢) ابن الديبع الشيباني : تيسير الوصول ٣ : ٢٠٥ ط الحلبي . القاهرة — ١٩٧٠م .

(٣٣) نفس المكان .

ثانيا : تبرئة الانبياء والصالحين من تهم باطلة . من ذلك قول الله دفاعا عن طهارة مريم ابنة عمران :

وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾

(النساء) .

ثالثا : ان القرآن نزل « مهيمنا » على ماجاء في الكتب السابقة : يقول الله تعالى :

وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾

(المائدة) .

والقرآن لا يكتفي بتسجيل الحق فيما يقول ، وانما يلجأ الى البرهان العقلي ، وبرهان الفطرة ، ويدعو الناس الى التأمل فيما

يسوقه من الادلة . من ذلك قوله تعالى عن التوحيد وهو يقرره :

أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾

(الانبياء)

فتعدد الالهة يقتضي تعدد الآراء والاحكام ومحاولة بعضهم السيطرة على بعض :

مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ (المؤمنون) .

وهنا نجد ربطا بين تحقيق الخبر كحقيقة تاريخية ، واثباته بالدليل العقلي ، وتحريره من اي تحريف دخل على بساطة العقيدة وسلامتها .

الآفاق المفتوحة وسنن التاريخ : واذا كان الوحي هو المصدر الأعلى للمعرفة حقا ومنهجا ، فان القرآن يدعو الناس الى آفاق مفتوحة بلا حدود — الا حدود قدراتهم — ليكونوا اقدر على

القيام بمهمتهم التي رسمها لهم وهى : خلافة الله في ارضه .

وهو يدعو الناس الى فتح آفاق النفس والكون والسعي في هذه الارض بحثا عن حقائق وحضارات سبقت ، ومجالات من العلم تنتظر جهود الانسان .

فمعرفة الانسان دائرة او دوائر آخذة في الاتساع ، وسط مجالات لا نعرف لها حدودا ، هى علم الله . وفي هذا نقرأ قوله تعالى :

قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾

(الكهف) .

والانسان — كل انسان — مدعو بالامر الألهي الاول « اقرأ » وبالدعاء الذي علمه الله رسوله وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾

(طه)

الى السير في هذه الارض طلبا لمزيد من المعرفة :

قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ

ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٠﴾ (العنكبوت)

ويقول تعالى : أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا ﴿٤٤﴾

(فاطر)

« وعاقبة الذين من قبلهم » صميم الدراسة التاريخية . و « عاقبة » ربط بين سبب ونتيجة ، لا مجرد رصد لواقع تاريخي .

هذه العاقبة تحدث اذا توفرت مقدماتها . وهذا الترابط هو « سنن » او قوانين الحياة . وفي هذا يقول الله :

قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾

(آل عمران)

فحركة التاريخ بصريح القرآن سنن وقوانين .

الفطرة والنفس : ولو تأملنا في قول لله تعالى :

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾

(الروم)

وربطناها بآيات « سنة الله » كقوله تعالى :

سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾

(الاسراء)

فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾

(فاطر) .

حين نربط بين هذه الايات المتعلقة بسنة الله ، وفطرة الله ، وجدنا الفطرة هى السنن الالهية التي تقوم عليها حياة . والناس هم مادة التاريخ . ونفي التبديل والتحويل يبين قواعد تسير عليها الحياة . وامام الانسان اختيارات بين هذه السنن ، كقواعد

الرياضة ، يختار القاعدة ، فاذا توفرت مقدماتها ، جاءت نتيجتها تابعة لها .

وتصف الآية الكريمة ، الاسلام — دين القرآن — بأن الفطرة التي فطر الله عليها الناس . وان السنن التي أوردها الله فيه ، هي الاصلح لمسار الحياة الانسانية ، وبالتالي لتصوير التاريخ . وسنصل الى هذا في الجزء التطبيقي والاخير من هذه الدراسة .

ولكن الذي يعنينا الان ، ان عرض القرآن للقطاع الانساني التاريخي السابق ، والمعاصر للاسلام ، يقوم على « فطرة » و « سنن » و « قوانين »[٣٤] . فالتاريخ في الاسلام ليس تدفقا عشوائياً ولا سلسلة من الآنيات المتتابعة غير المترابطة .

سؤال اهل العلم : ويضيف القرآن الى الوحي والرحلة في الافاق والتاريخ ، سؤال اهل الذكر ، كمصدر من مصادر المعرفة في عمومها ، والتاريخ جزء منها : يقول تعالى :

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ (النحل) .

---

(٣٤) محمد احمد الغمراوي : الاسلام في عصر العلم ص ١ — ٩ ويدرس في هذا الفصل الاول : الاسلام والفطرة . ط . دار الانسان . القاهرة ١٣٩٣ هـ — ١٩٧٣م .

ثانيا : نقد الخبر وتعليله :

خطوة ابن خلدون : في تحقيق متن الخبر تبدو الخطوة التي خطاها ابن خلدون بالتاريخ الاسلامي ، وهو فيها مستند ايضا الى القرآن الكريم ، وفي مقدمته يضرب — أولا — مثالا من العهد القديم عن عدد الذين كانوا مع موسى في الخروج ... ولندع ابن خلدون يبين طريقته :

« وكثيرا ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المغالط في الحكايات والوقائع ، لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا وسمينا ، لم يعرضوها على اصولها ولا قاسوها على اشباهها ، فضلوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط .. وهذا كما نقل المسعودي وكثير من المؤرخين في جيوش بني اسرائيل ، وان موسى عليه السلام احصاهم في التيه ، بعد ان اجاز من يطيق حمل السلاح خاصة من ابن عشرين فما فوقها ، فكانوا ستمائة الف او يزيدون . ويذهل في ذلك عن تقدير مصر والشام واتساعها لمثل هذا العدد من الجيوش .. لكل مملكة من الممالك حصة من الحامية تتسع لها وتقوم بوظائفها ، وتضيق عما فوقها ، تشهد بذلك العوائد المعروفة والاحوال المألوفة »(٣٥) .

ونقد ابن خلدون هذا الخبر عن طريقة المقارنة بملك الفرس ودولتهم وامتدادها « ومع ذلك لم تبلغ جيوش الفرس قط مثل هذا العدد ولا قريبا منه »(٣٦) . ثم نقدها على اساس من ان العدد لو كان مقبولا لكان حجم الدولة كبيرا« فان العمالات والممالك في

---

(٣٥) مقدمة ابن خلدون : ١ : ٢٢٠ .

(٣٦) نفس المكان .

الدول على نسبة الحامية والقبيل القائمين بها في قلتها وكثرتها »[٣٧] . ثم نقدها على اساس من معدلات التكاثر الطبيعية لبني اسرائيل ما بين موسى واسرائيل وهم اربعة آباء ، ويبعد ان يتشعب النسل في اربعة اجيال الى مثل هذا العدد »[٣٨] .

وينتقل بعد هذا الى نقد اخبار عن التبابعة ملوك اليمن ، وجيوش المسلمين والنصارى . وينقد ما يتناقله المفسرون في تفسير قوله تعالى

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝

(الفجر)

فيجعلون لفظ ارم اسما لمدينة وصفت بأنها ذات عماد اي اساطين وانها مدينة قصورها من الذهب .. ذكر ذلك الطبري والثعالبي والزمخشري .

وينقد ابن خلدون هذه القصة بأن هذه المدينة لم يسمع لها خبر من يومئذ في شيء من بقاع الارض ، وصحارى عدن التي زعموا انها بنيت فيها هى في وسط اليمن ، وما زال عمرانه متعاقبا ، والادلاء تقص طرقه من كل وجه .. وقد ينتهي الهذيان ببعضهم الى انها غائبة وانما يعثر عليها اهل الرياضة والسحر ، مزاعم كلها اشبه بالخرافات »[٣٩] .

---

(٣٧) نفس المرجع ١ : ٢٢١ .

(٣٨) نفس المكان .

(٣٩) نفس المرجع ١ : ٢٢٧ ــ ٢٢٨ .

ثم يحاول بعد هذا أن يعلل ذهاب الاخباريين هذه المذاهب والوقوف على تلك الحكايات التي هى اقرب الى الكذب ، المنقولة في عداد المضحكات ، ثم لا يزيد في القول عن العماد بأنها عماد الاخبية بل الخيام .

ومن تفسير القرآن ينتقل الى نقد الحكايات المدخولة في التاريخ الاسلامي كقصة العباسة اخت الرشيد مع جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي ..

وتستطيع ان تجد سندا لكل من الطبري وابن خلدون ـ او على الاصح ، لكل من المنهجين ــ من القرآن الكريم .

الجهد الاكبر لمدرسة الطبري تحقيق الرواية . وهذا حق يتقبله ابن خلدون ، ويخطو بعده الى تحقيق الخبر في ذاته ووزنه بميزان العقل على اسس من الدراسة المقارنة ــ كما رأينا في عدد بني اسرائيل ــ او من مصادمة الواقع كما في ارم ذات العماد ، او من مصادمتها الأعراف كما في قصة العباسة ..

والقرآن يدعونا الى الخطين معا : تحقيق الرواية ، وتحقيق الموضوع او المتن . يقول تعالى :

وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ (الاسراء)

ولو كان الامر مقتصرا على « تجميع » المادة العلمية لكان السمع والبصر يكفي ، وهي الابواب الاساسية للاتصال بالعالم الخارجي . ولكن « الفؤاد » هنا يفيد عملا داخليا يضم القبول العقلي والنفسي للمادة المجموعة . القبول بعد العرض على اضواء النقد الخارجي والداخلي .

القرآن وتفسير التاريخ :

ارتبطت محاولات تفسير التاريخ ــ اكثر ما ارتبطت ــ باتخاذ محور اساسي تقوم عليه نظرية متكاملة . وتعود المحاور ــ في الاغلب ــ الى التخصص أو الاهتمام الرئيسي لصاحب النظرية .

اقول نظرية : لانها جميعا تلتقي عند « اختيارات » من التاريخ ، يقيم منها صاحبها هيكلا عقليا ، يحاول به ان يفسر التاريخ العام . وهو بحر تصب فيه الاحداث جميعا ، يصفو احيانا ، وتشتد عواصفه وتثور امواجه في حركة لا تتوقف .

واحتلت الصدارة عند اصحاب فلسفة التاريخ عوامل متعددة : البطولة والابطال . العوامل الجغرافية . الابتكار والتقليد . العوامل والانساق الاجتماعية . العوامل الاقتصادية . ودخل عامل « الحركة » في نظام دوري أو متجدد : كما نجد عند ابن خلدون و « شبنجلر » و « هيجل » و « كارل ماركس » ثم عند « ارنولد توينبي »[٤٠] .

---

(٤٠) تراجع في الدراسة المقارنة لهذه العوامل : الفصول الخمسة الاولى من الجزء الاول من قصة الحضارة ل (ويل ديوانت)وفيها يدرس (١) احوال الحضارة (٢) والعوامل الاقتصادية (٣) والسياسية (٤) والاخلاقية (٥) والعقلية .

=

والذين درسوا تفسير التاريخ من الكتاب المسلمين عنوا بالدراسة المقارنة بين بعض هذه النظريات والفلسفات وبين آيات من القرآن الكريم . وامامي عند اعداد هذه الدراسة ثلاثة كتب :

١ — المفهوم القرآني للتاريخ : مظهر الدين صديقي (١٩٦٥) . عني فيه بدراسة القرآن وتغيرات التاريخ ومفاهيم التاريخ في العهد القديم والجديد والقرآن . وتعليقات على ما ذكر القرآن من التاريخ العربي القديم ، والتاريخ اليهودي والمسيحي ، ويختم الكتاب بدراسة مقارنة عن المفهوم القرآني للتاريخ مقارنا بفلسفات التاريخ الحديثة(٤١) .

٢ — تفسير التاريخ : عبد الحميد صديقي (١٩٨٠) . كان الكتاب في صورته الاولى مقالات ، كل منها مستقل بنفسه ، وان جمعتها وجهة نظر واحدة . وتضم بحوث الكتاب : النظرة الاحيائية للتاريخ: فلسفة هيجل للتاريخ . الفكرة المادية عن

= WILL DURANDT : THE STORY OF CIVILISATION., PART 1
OUR ORIENTAL HERITAGE, CHAP. 1-5 pp1-89
SIMON & SCHUSTER, NEW YORK, 1954.

وللكتاب ترجمة عربية تولتها الادارة الثقافية لجامعة الدول العربية بالقاهرة .

(٤١) MAZHERUDDIN SIDDIQI : THE QURANIC CONCENT OF HISTORY .

مظهر الدين صديقي : المفهوم القرآني للتاريخ .

ISLAMIC RESEARCH INSTITUTE, PAKISTAN.
DISTRIBUTED BY OXFORD UNIV. PRESS, 1965 .

التاريخ . التفسير الاسلامي للتاريخ . الخاتمة[٤٢] .

واذا كان الكتاب الاول قد عني بالتتابع التاريخي وانتهى بالفسلفات المعاصرة ، فان الثاني عرض اهم الاتجاهات المعاصرة لينتهي الى التفسير الاسلامي للتاريخ كما يتصوره .

٣ ـــ التفسير الاسلامي للتاريخ : عماد الدين خليل (١٩٧٨) . وفصول الكتاب بعد المقدمة : التفاسير الوضعية الاساسية : عرض ونقد . الواقعة التاريخية . المسألة الحضارية . سقوط الدول والحضارات .

وفي التفاسير الوضعية عرض التفسير المثالي عند « هيجل » ، والمادي عند « ماركس » و « انجلز »،والحضاري عند « توينبي » (التحدي والاستجابة) ، والذين نقدوا « توينبي » مثل « سوروكن » . وفي الواقعة التاريخية درس مساحتها ومداها الزماني والمكاني ، والفعل الالهي المباشر وغير المباشر ، وفي المسألة الحضارية درس التركيب الثنائي في الكون (الصراع . التناقض . التقابل . الخير والشر) وفي الفصل الاخير عن سقوط الدول والحضارات ، درس مظاهر وآثار الاختلال السياسي والاداري والاقتصادي ، وان الاسلام يقيم الحياة على التوازن[٤٣] .

---

(٤٢) عبد الحميد صديقي : تفسير التاريخ . ترجمة ناظم الجواري دار القلم ـــ الكويت ١٤٠٠ هـ ـــ ١٩٨٠م .

(٤٣) عماد الدين خليل : التفسير الاسلامي للتاريخ . دار العلم للملايين ـــ بيروت ١٩٧٨م

وسبقت هذه المجموعة من الكتب دراسات عنيت — في بعض فصولها — بجمع وتحقيق المعلومات : ومن ابرزها « مصطلح التاريخ » لأسد رستم [٤٤] . و « منهج البحث التاريخي » لحسن عثمان[٤٥] .

وأعود فأقول : انني لا احاول صياغة نظرية شاملة اسلامية او قرآنية في تفسير التاريخ ، وافضل ان اقول مع مظهر الدين صديقي : ان القرآن لا يقدم لنا فلسفة كاملة الصياغة ، ولكن به معطيات محددة ، بغيرها لا نستطيع ان نتصور التاريخ في وضوح .

هذا الى ان المفهوم الحديث لفلسفة التاريخ ، يقضي ان التاريخ تحكمه قوانين نوعية تخضع لها كل المجتمعات على سواء . وهي نقطة خلافية . بعض الكتاب يشك في امر هذه القوانين ، وفي قضية التكرار في التاريخ ...[٤٦] ولكنا هنا لسنا بصدد عرض هذه الاتجاهات ، وانما نحاول ان نفهم ما في القرآن من امر « الفطرة » و « السنن » بمفهومها القرآني دراسة وتطبيقا .

ولقد ادرك الصحابة — من اول الامر — الترابط الوثيق بين الفكرة والعمل ، او بين دراسة التاريخ وصناعة التاريخ ، وكان

---

(٤٤) اسد رستم : مصطلح التاريخ . المكتبة العصرية . صيدا وبيروت ١٩٥٥م . (وعني فيه بنقد الاصول وتحري الحقائق التاريخية وايضاحها وعرضها وما يقابل ذلك في علم الحديث) .

(٤٥) حسن عثمان : منهج البحث التاريخي . ط . الثالثة منقحة . دار المعارف . القاهرة ١٩٧٠ . وفيه عناية ايضا بمناهج المسلمين في التحقيق .

(٤٦) مظهر الدين صديقي (١٩٦٥) ص ١٩٥ .

القرآن هو الكتاب الذي ينفذ المؤمنون آياته وهو ينزل . واستطاعوا ان يكوّنوا جماعته في مكة ، ثم مجتمعه ودولته في المدينة ، قبل ان يكتمل نزوله . وكانت حياة المسلمين تصويرا حيا لما يصنعه القرآن في نفوسهم .

عن ابن مسعود ، قال :

كان الرجل منا اذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن(٤٧) .

---

(٤٧) تفسير الطبري ١ : ٣٥ ط . الحلبي .

القسم الثالث

صناعة التاريخ

أقصد بصناعة التاريخ تطبيقة ، وذلك بالاستفادة من اوامر الله ونواهيه وسننه التي دعا الناس الى الاعتبار بها ، وصياغتها حياة جديدة .

التوحيد والوحدة : واول ما دعا القرآن الناس اليه : توحيد الله والاخاء الانساني في ظل المودة دون استعلاء عنصري او طبقي ، والعمل الصالح في هذه الحياة ، والايمان بالجزاء . وان هذا ما جاء به الانبياء من قبل . فدين الله واحد . والاسلام — بمفهومه الشامل — يضم الديانات والانبياء جميعا .

إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً
وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٩٢﴾ (سورة الانبياء) .

ولكن هناك مباينة واضحة بين الاسلام وما سبقه من الانبياء في اثبات النبوة :

طبيعة معجزة القرآن : ولقد وضح النبي ﷺ هذه المفارقة في حديثه الشريف :

— « ما من الانبياء من نبي الا قد اعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر . وانما كان الذي اوتيت وحيا اوحى الله الي ،

فأرجو ان اكون اكثرهم تابعا يوم القيامة » (رواه مسلم عن ابي هريرة)[٤٨] .

فالقرآن — من هذه الزاوية ، مفارقة لمعجزات الانبياء السابقين جميعا . والاعجاز فيه ، بأية واحدة او عشر آيات او به جميعا . وهو في نفس الوقت — مفارق لكلام البشر . ولم يؤثر عن فصحاء العرب — مع علو مكانتهم وكبريائهم وشدة التنافس بينهم — ان حاول احدهم معارضة القرآن الكريم ، رغم انهم شنوا الحروب على قاعدة الاسلام . ادعوا أنه سحر يؤثر .

فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ (المدثر)

وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ (الفرقان)

دون ان يقوم منهم من يقول : هذا قولي اعارض به القرآن .

ولقد ذهبت معجزات الانبياء الاخرى وطواها التاريخ : عصا موسى . ناقة صالح . حمار العزير . البحر الذي انشق امام موسى . النار التي همدت عند القاء ابراهيم فيها . طوفان نوح .. واصاب الكتب السابقة ما اصابها ، وبقي المنسوب الى الانبياء

(٤٨) مختصر صحيح مسلم للحافظ المنذري . حديث رقم ١٩ ص ١٣ . تحقيق محمد ناصر الدين الالباني . ط . وزارة الاوقاف والشئون الاسلامية . الكويت . ١٣٨٨ هـ — ١٩٦٩م.

فيها ــ بشهادة اهلها ــ اجزاء من كتاب اكبر . **فهي** كتب تاريخ دين ، او تاريخ انبياء ، وليست النص الذي انزله الله[٤٩] .

وانتهى عهد المعجزات الكونية : والحقيقة الكبرى وراء هذا كله ، هو انتهاء عهد المعجزات الكونية . واقوى شاهد على حدوثها ما اثبته القرآن الكريم من عصمة الانبياء وطهارتهم ، وما اجراه الله على ايديهم من معجزات كانت الوسيلة الى اقناع الاقوام او الاسلوب الذي اخذ الله به الكافرين ، كالخسف والاغراق والصواعق. والله تعالى يقول في كتابه : **وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ** (الاسراء : ٥٩) .

---

(٤٩) (يقول قاموس الكتاب المقدس (١٩٦٤) عن نص الكتاب المقدس :

ــ « .. الا انه لم يصل الينا بعد شيء من النسخ **الاصلية** التي كتبها هؤلاء الملهمون او كتابهم . وكل ماوصل الينا نسخ مأخوذة عن هذا الاصل . واقدم النسخ من مخطوطات العهد القديم في اللغة العبرية هى التي وجدت في وادي قمران قرب البحر الميت ويرجع تاريخ بعض هذه المخطوطات الي القرن الثالث قبل الميلاد . واقدم مخطوطات من العهد القديم بجملته في اللغة العبرية ترجع الى القرن العاشر الميلادي » . ص ٧٦٣ .

ــ ثم يقول : « واقدم نسخ بعض اسفار العهد الجديد وجدت مكتوبة على البردي وترجع الى القرنين الثاني والثالث الميلاديين » ص ٧٦٤ .

ــ وانظر ايضا موريس بوكاي (١٩٧٧) في نفس الموضوع :

« كان الكتاب المقدس قبل ان يكون مجموعة اسفار ، تراثا شعبيا لا سند له الا الذاكرة وهي العامل الوحيد الذي اعتمد عليه نقل الافكار . وكان هذا التراث يُغَني . كان الناس يغنون في جميع المناسبات » ص ٢٠ .

ــ وانظر رحمة الله بن خليل العثماني الكيرانوي : اظهار الحق . تعريف وتحقيق محمد كمال فراج . توزيع الاهرام ١٣٩٨ هـ . ١٩٧٨م.

الفصل الثاني من الباب الثاني عنوانه : في بيان ان اهل الكتاب لا يوجد عندهم سند متصل لكتاب من كتب العهد العتيق والجديد . ص ٥١ ــ ٧٩ ثم يدرس الاختلافات فيها في الفصل الثالث ض ٧٩ ــ ١٦٢ . وفي الرابع ينقض قضية الالهام ، وانها مصدر كتابتها جميعا ص ١٦٢ ــ ١٨٣ .

فهذه ثلاثة مراجع : اولها مسيحي والثاني مسيحي اعتنق الاسلام . والثالث مسلم مختص بالدراسات المقارنة .

وعندما تحدى مشركو قريش النبي ﷺ ان يأتي بالمعجزات الكونية كالانبياء السابقين ، سجل الله هذا الحوار في كتابه :

وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ (الاسراء)

واذا كان الله قد ايد رسوله ببعض المعجزات كتكثير الطعام بين يديه — وقد حدث هذا مع انبياء سابقين وجاء فيما حفظته كتبهم — الا ان هذه لم تكن المعجزة الكبرى في الاسلام ، ولم تكن مجال التحدي بين الرسول وقومه .

واذا كان العهد النبوي قد جمع بين المعجزة الاساسية وهى القرآن ، وبعض المعجزات الكونية ، فقد ذهبت هذه المعجزات مع التاريخ ، كما ذهبت معجزات الانبياء السابقين وبقي القرآن وحدة معجزة غير مسبوقة ولا ملحوقة . معجزة لها صفة

الاستمرار ما بقيت الحياة . وبقاء القران معجزة ، تنسخ مراحل المعجزات الكونية . ولا يبقي امام المسلم الا ان يعتمد مع ايمانه ، على جهده العلمي وتخطيطة لحاضره ومستقبله .

واصبح على المسلم اذا اراد ان يتبع القرآن ان يعيش بنورين : نور الوحي ونور العلم . والوحي في الاسلام هو المصدر الاعلى للعلم ، وهو الذي يدعو المسلم الى استخدام حواسه وتوسيع آفاق معرفته قياما بمسئولية خلافة الله في ارضه .

ختم النبوة : ويرتبط هذا ايضا بعقيدة ختم النبوة في الاسلام . فمع انتهاء عهد النبوات ، بقي ان يحسن الناس تنفيذ الخطوط الرئيسية التي ذكرها القرآن ، ليصوغوا بها حياتهم ، ويصنعوا تاريخهم .

من سنن القرآن في التاريخ :

ويوضح القرآن سننا متوازنة تترابط فيها المقدمات والنتائج . وفي هذا التوضيح تبدو الآفاق التي يعني بها القرآن ، للافادة منها في صناعة التاريخ :

(١) الترف وعلاقته بالحكم :

فالقرآن يربط بين الترف في العيش او الحكومة وبين الفساد في الحكم . والربط مستمر في كل الآيات الثمان التي جاء فيها ذكر الترف : وصفا للمترفين او حالة الترف ذاتها وآثارها ، وكيف انها تعقب الضياع في الدنيا وسوء الحساب في الآخرة .

يقول تعالى : وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن

نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾

(سبأ) .

ولماذا يغير المترف نظام حياته ؟ وهو يحصل على الكثير ولا يبذل من الجهد الا القليل ؟ وهو ان تولي مسئولية الحكم فكثيرا ما يعتمد على غيره ، ولا يحسن اختيار معاونيه ، فهو يختارهم على شاكلته . وتنحدر المسئوليات من يد الى يد ، وتضيع مصالح الناس بين الاستغلال واللامبالاة والاهدار ... يقول تعالى :—

وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾

(الاسراء) .

« اردنا » في هذه الآية ارادة كونية ، هى قانون في الحياة « امرنا » جعلناهم امراء . وفيها قراءة بتشديد الميم : « امّرنا » . فاذا استولى المترفون على الحكم في قرية « فسقوا » اي خرجوا عن امر الله . « فحق عليها القول » جاءت النتيجة مترتبة على المقدمة « فدمرناها تدميرا » .

والمترفون اعداء اي تطور وتقدم . يكفيهم ما كان عليه الآباء . والاتباع والتقليد اقرب اليهم من الاجتهاد وتحمل مسئولية الجديد

من الآراء والمواقف ، ولو كان الجديد عودة الى الفطرة السليمة . والفطرة هى صبغة الله وسنته في خلقه . يقول تعالى عن التقليد وعلاقته بالترف وموقفهما من قضية الايمان وعبادة غير الله :

وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾

(الزخرف) .

ويصل الحوار الى ذروة يدعوهم فيها الرسول الى أهدى مما وجدوا عليه الآباء .. فلا يكون منهم الا الكفر :

* قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ (الزخرف)

مع ابن خلدون في قيام الدولة ثم حصول الترف :

واذا كان القرآن الكريم قد بين أثر « دفع الله الناس بعضهم ببعض » وأثر الترف .. فلننظر كيف افاد ابن خلدون من هذين الأمرين ، كنموذج للربط بين قواعد العمران كما وصل اليها ، واصولها من كتاب الله .

يقول في « فصل في ان الغاية التي تجري اليها العصبية هي الملك » .

« وذلك لأنا قدمنا ان العصبية بها تكون الحماية والمدافعة والمطالبة وكل امر يجتمع عليه . ثم ان القبيل الواحد ، وان كانت فيه بيوتات متفرقة وعصبيات متعددة ، فلا بد من عصبية تكون اقوى من جميعها ، تغلبها وتستتبعها وتلتم جميع العصبيات فيها ، وتصير كأنها عصبية واحدة كبرى ،والا وقع الافتراق المقضي الى الاختلاف والتنازع .(٥٠) وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ (البقرة : ٢٥١) .

ثم يتابع بعد هذا اتساع هذه العصبية وقوتها حتى تبلغ غايتها من الاستيلاء على الدولة .. ويعقب على هذا بفصل عنوانه : « فصل في ان من عوائق الملك حصول الترف وانغماس القبيل في النعيم » وكيف يستهوى الناس خصب العيش والتأنق فيه ..

« وعلى قدر ترفهم ونعمتهم يكون اشرافهم على الفناء فضلا

---

(٥٠) مقدمة ابن خلدون ٢ :٤٣٩ .

عن الملك ، فان عوارض الترف في النعيم كاسرة من سورة العصبية التي بها التغلب .. فقد تبين ان الترف من عوائق

وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ [51] (البقرة : ٢٤٧) .

ويقول في فصل تال « في ان من علامات الملك التنافس في الخلال الحميدة وبالعكس » .

« واذا تأذن الله بانقراض الملك من امة حملهم على ارتكاب المذمومات .. وسلوك طرقها ، فتفقد الفضائل السياسية منهم جملة ، ولا تزال في انتقاص الى ان يخرج الملك من ايدهم ، ويتبدل بهم سواهم :

وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ [52]

(الاسراء) .

ونستطيع ان نتتبع غير قليل مما جاء في مقدمة ابن خلدون عن قيام الدول وانقراض الملك ، لنرى كيف يربطه بالقرآن الكريم ، وبنماذج من التاريخ ، ولنبين جذوره من مقدمته ، وان لم تكن « كل » النتائج التي وصل اليها مقبولة ممن جاءوا بعده ، شأن اي جهد بشري . « هذا وكثير من القوانين والافكار التي

---

(٥١) نفس المرجع ٢ : ٤٤١ .

(٥٢) نفس المرجع ٢ : ٤٤٦ .

انتهى اليها ابن خلدون لا تكاد تصدق الا على الامم التـي لاحظها ، وهى شعوب العرب والبربر ، والشعوب التي تشبهها في التكوين وشئون الاجتماع . بل لا تصدق على هذه الامم نفسها الا في مرحلة خاصة من مراحل تاريخها ، وهى المرحلة التي شاهدها او انتهى اليه علمها »[٥٣] .

ومن هنا نجد اعجاز القرآن في ذكره القواعد والقوانين اجمالا .. على قاعدة « اجمال مايتغير وتفصيل مالا يتغير[٥٤] ثم من هذه القوانين العامة انطلق الباحثون المسلمون في فلسفة التاريخ ، وكان من اشعاعهم ما انار الطريق لمن جاءوا بعدهم ..

والذي اود ان اركز عليه القول : كيف ان القرآن دعا ـــ في التاريخ ـــ الى المعرفة والتحقيق والتعليل على مستوى الحدث او الاحداث او المنظور العام للتاريخ .

---

(٥٣) مقدمة على عبد الواحد وافي لمقدمة ابن خلدون ١ : ١٣٤ ـــ ١٣٥ .

وانظر ايضا : محمود اسماعيل : قضايا في التاريخ الاسلامي : منهج وتطبيق . فصل عنوانه : التفسير الاجتماعي لثورات المغاربة في القرن الثاني الهجري . يقول : ومن المفيد ان نشير الى تحامل ابن خلدون على العرب وتحيزه للبربر . وفي تأريخه للثورة لا يلتزم كثيرا بآرائه الفذة التي ضمنها مقدمته . ونظرته الشمولية الفلسفية للتاريخ التي تستقصي الاحداث وتكشف عن عللها من جميع جوانبها لم يطبقها في **نظرته** الى الثورة ص ١٠٣ ط . الثانية . دار الثقافة الدار البيضاء . المغرب ١٩٨١ .

وانظر ايضا : اسد رسم مصطلح : التاريخ (١٩٥٥) :

« في كلام ابن خلدون ضعف ظاهر . ومصدر الضعف ان طبائع العمران التي ذكرها في مقدمته شيء اقل ما يقال فيه انه غير مستقر او راهن . فما يتعلق من طبائع العمران بالطبيعة ، فقد انتظمت ظواهره وثبتت نواميسه ، ويصح فيه تطبيق نظرية ابن خلدون . اما ما يتعلق من طبائع العمران بالمجتمع البشري ، فلسنا نستطيع قبوله . وذلك ان العلماء لم يتمكنوا بعد من تعيين نواميس لعلم الاجتماع ، كما فعلوا في العلوم الطبيعية . ولو تمكنوا لن تكون نواميس ثابتة لا تتغير ، بل تقريبية » (ص ٧٩) .

(٥٤) محمود شلتوت : الاسلام عقيدة وشريعة : ص ٤٩٧ : ٤٩٨ . ط . الثالثة . دار القلم القاهرة ١٩٦٦ .

(٢) **خطورة سيطرة رأس المال على الحكم :**

وهى من القواعد العامة التي يوجه القرآن الى تأملها ، ويحذرنا من آثارها . بقوله تعالى : وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ (البقرة)

وفي الآية توضيح لدورة شريرة للمال : ان يجتمع في ايد محدودة العدد قوية التأثير ، لا تتقي الله في طريق جمع ولا استغلال فقير . وانظر الى الشمول في قوله تعالى « ولا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل » : ان تكون حركة المال كسبا وانفاقا وتوزيعا على اسس باطلة .. ثم يتجه اصحاب المال بجزء منه الى الحاكم ، يشغلونه به ، ويخدرون حواسه لكيلا يحس بما يعملون .. ثم يعودون على الناس بمزيد من الاستغلال ، يعوضون به ما بذلوا للحاكم ، ويضيفون اليه مكاسب جديدة .. وهذا إثم جديد مضاف الى باطل قديم .

ولك ان تنظر الى هذه القاعدة العامة في ضوء ما ترى من خطورة سيطرة رأس المال ، ومن ضرورة العدل في التوزيع وفتح المجال امام الانتاج الطيب والكسب الحلال .

وفي ضوء هذه الاية تستطيع ان ترى الزارع الذي ظلمه

الاقطاع ، والعامل الذي ذابت حياته في المناجم ، والملاح الذي مزقت شباك الصيد وملح البحر يديه ، ثم عدا التاجر الكبير على صيده . ترى هؤلاء المظلومين عبر التاريخ ، وترى استغلال السادة من رجال المال والاقطاع والسطوة ، وحركة المال في اليد الآثمة ، تحرم صاحب الحق وتكنز الذهب والفضة ، الا من رحم ربك ، وقليل ما هم .

ويعطي القرآن امثلة لمن كنز الذهب كقارون وكيف كان مصيره ، ومن حاول حرمان الفقير حقه كأصحاب الجنة في سورة القلم :

فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ (القلم) .

نموذج من صناعة التاريخ بلا معجزات :

وكانت حياة الرسول تصويرا حيا لانتقال التاريخ الانساني من عصور معجزات الانبياء الى عصور جديدة يحمل فيها الانسان مسئولية عمله ، ويخطط له على هدى وبصيرة ، دون ان ينتظر انفلاق البحر او تفجر الماء من الصخر ، او تحول العصا الى ثعبان .

واعطانا القرآن النماذج التطبيقية للارتباط الوثيق بين الاسباب والنتائج الملموسة ، واقربها ما حدث في غزوة احد عندما خالف الرماة عن امر الرسول عليه الصلاة والسلام وانكشفت ثغرة كان يحميها الرماة .
واستطاع خالد بن الوليد ان يستغلها ، فهاجم منها الجيش الاسلامي ، ووقعت في المسلمين مقتلة عظيمة ، استشهد فيها سبعون ، وجرح سبعون ثم تماسك المسلمون بعد الجراح والشهداء . والتفوا حول الرسول ، ودافعوا عن لوائهم بكل بطولة ، ولم يستطع العدو ان يحقق أياً من هدفيه : اقتحام المدينة او قتل الرسول .

عندما تساءل بعض الصحابة عن سبب ذلك وكيف استطاعت قريش ان تحقق ما حققت بينما الرسول على رأس الجيش الاسلامي وعليه ينزل القرآن ؟ جاء قول الله تعالى محددا قوانين النصر والهزيمة .

أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٌ (أي في احد) قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا

(اي في بدر) قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ (آل عمران : ١٦٥) .

فالنصر صناعة ، والهزيمة صناعة ، ومن الممكن ان ينالكم ما نالكم ولو كان الرسول قائدكم ، ما دمتم قد خالفتم عن امره ، ولم تنفذوا الخطة التي وضعها لكم ، وارتضيتوها قبل المعركة(٥٥) .

وشيء قريب من هذا حدث في حنين :

لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ (التوبة)

وبهذا بين القرآن لسير المعارك قوانين ، كما بين للحياة قوانين . وميزتها انها تجمع بين امرين ، الاول : الربط الطبيعي بين السبب

---

(٥٥) عبد العزيز كامل : دروس من غزوة واحد . فصل بعنوان : تحليل قرآني . وفيه دراسة مفصلة للمنهجية العلمية في غزوة احد ص ١٠٩ ـــ ١٣٤ . ط . ثالثة . دار المعارف . القاهرة ١٩٧٩م.

والنتيجة . والثاني : المستوي الاخلاقي الذي يمارس به المسلم عمله ويمارس به المجتمع مسئولياته .

واذا ما تمسك المسلمون بالقانون الاخلاقي وحده ، دون القانون الطبيعي الذي يربط الاسباب بالنتائج ، او تمسكوا بالقانون الطبيعي واهدروا المستوى الاخلاقي ما كانوا مطبقين القرآن .

وما يريده القرآن:ان نصنع التاريخ على اساس من الحمع بين التخطيط العلمي الدقيق ، والمستوى الاخلاقي الكريم معا ..

تصوير الشاطبي لهذه الصناعة :

ونستطيع ان نستعير تعبير الامام الشاطبي عن مقاصد الشريعة ، لصناعة التاريخ في القرآن . يقول : « الشريعة جارية في التكليف بمقتضاها على الطريق الاوسط الاعدل ، الآخذ من الطرفين بقسط لا ميل فيه .. فان كان التشريع لأجل انحراف المكلف ، او وجود مظنة انحرافه عن الوسط الى احد الطرفين ، كان التشريع رادا الى الوسط الاعدل ، لكن على وجه يميل فيه الى الجانب الآخر ليحصل على الاعتدال فيه[٥٦] .

ويضرب امثلة متعددة لهذا « الطريق الوسط الاعدل » فيقول : « اولا ترى ان الله تعالى خاطب الناس في ابتداء

---

(٥٦) الشاطبي (ابو اسحق) : الموافقات ٢ : ١٦٣ وما بعدها . وكتاب الموافقات قمة شامخة في اصول التشريع الاسلامي . شرح عبد الله دراز ومحمد عبد الله دراز . ط . التجارية . القاهرة اعادت تصويره : دار المعرفة . بيروت لبنان (بدون تاريخ) .

التكليف خطاب التعريف بما انعم عليهم من الطيبات والمصالح كقوله تعالى :

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾

(البقرة : ٢٢)

فلما عاندوا وقابلوا النعم بالكفران .. اقيمت عليهم البراهين القاطعة بصدق ما قيل لهم .. فلما لم يلتفتوا اليها لرغبتهم في العاجلة اخبروا بحقيقتها وانها في الحقيقة كلا شيء ، لأنها زائلة فانية . وضربت لهم الامثال في ذلك كقوله تعالى :

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾

(يونس : ٢٤) .

وكقوله تعلى : ﴿أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ﴾

(الحديد : ٢٠)[٥٧] .

ويذكر الامام الشاطبي بعد هذا نماذج من التوسط : بين التشدد في الامتناع عن الطيبات والافراط في التمتع بها . وكذا الامر في الانفاق : فهو وسط بين الاسراف والتقتير . ويجمل هذا في قوله :

---

(٥٧) نفس المرجع : ٢ : ١٦٣ — ١٦٤ .

« فاذا نظرت في كلية شرعية فتأملها تجدها حاملة على التوسط . وعلى هذا اذا رأيت في النقل عن المعتبرين في الدين من مال عن التوسط ، فاعلم ان ذلك مراعاة منه لطرف واقع او متوقع من الجهة الاخرى ، وعليه يجري النظر في الورع والزهد ، واشباههما ، وما قابلهما . والتوسط يعرف بالشرع ، وقد يعرف بالعوائد ، وما يشهد به معظم العقلاء ، كما في الاسراف والاقتار من النفقات »(٥٨) .

عامل الحركة ومسار التقدم :

ويبدو من تصوير الشاطبي ، كيف ان « الاختيار » ليس امرا ثابتاً ، وانما هو اختيار متحرك دون افراط ولا تفريط . وهو رغبة في اعادة التوازن لأي انحراف في المجتمع ، وذلك في مجال الضروريات الخمس التي ذكر انها مقاصد الشريعة وهي : حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال(٥٩) .

هذا الاختيار والتوازن والتحرك في ضوء الشريعة بين مشكلات الحياة ، من اجل الصعود بها الى مستوى ارفع .

فهناك امران : توازن وصعود ، وهما مظهران لحركة التاريخ . وهي حركة متواصلة هادفة :

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ (الفتح : ٣٨) .

---

(٥٨) نفس المرجع : ٢ : ١٦٧ ـ ١٦٨ . (٥٩) نفس المرجع : ٢ : ٨ ـ ١٢ .

فلا مجال للقول بأن مسار التاريخ كما يصوره القرآن مجموعة متتابعة من المواقف أو الآنيات غير المترابطة ، وانما ينتظمها هدف كبير يوضحه القرآن .

كذلك لا مجال للنظرة المتشائمة التي تقول بانحدار التاريخ بعد عصر النبوة استنادا الى الحديث الشريف :
ــ ان خيركم قرني ، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم . ــ وكثيرا ما يتناسون بقية الحديث وهى ــ ثم يكون بعدهم قوم يشهدون ولا يستشهدون ويخونون ولا يؤتمنون ، وينذرون ولا يوفون ، ويظهر فيهم السمن . (رواه مسلم عن عمران بن حصين)[٦٠] .

فالخيرية في الحديث نوعية تتعلق بالتشريع ، ومستوى المواقف التي استطاع بها الصحابة والتابعون وتابعوهم ، ان يقيموا قواعد هذا الدين ، ويقوموا بأعباء فترة التأسيس الاولى بتضحياتهم ومعاناتهم.وهي فترة لا تتكرر . وهناك مقاييس نوعية تبين تقدما في مجالات اخرى متعددة ، من ابرزها : مساحة ارض الاسلام ، وزيادة عدد المسلمين ، وانتشار الحضارة الاسلامية،وزيادة دخل الفرد ، ودخل الدولة . وبهذا تنبأت احاديث شريفة مثل قوله عليه الصلاة والسلام :
ــ « والذي نفسي بيده ليفتحن عليكم فارس والروم . ولتصبن عليكم الدنيا صبا ، وليكثرن عندكم الخبز واللحم » (**رواه الطبراني** عن عبد الله بن يسر)[٦١] .

---

(٦٠) مختصر صحيح مسلم للمنذري : ص ٢ : ٢٢٤ . حديث رقم ١٧٤٣ .
(٦١) المتقي الهندي : كنز العمال ٣ : ٢٢١ . حديث رقم ٦٢٣٦ .

يضاف الى هذا ، الامل الفسيح الذي يتمثل في قوله عليه الصلاة والسلام :

— « مثل امتي مثل المطر ، لا يدري أوله خير أم آخره » (رواه الترمذي عن انس)[٦٢] .

فمن الخطأ اخذ حديث واحد دون وضعه في الاطار العام من الاحاديث الاخري في بابه ، او الاستناد الى نص قرآني دون اخذه في سياق النصوص الاخرى في نفس الموضوع .

واذا رجعنا الى كتاب الموافقات للامام الشاطبي ، وجدنا فيه نماذج للنظر في الآية — تشريعا — في سياق الآيات الاخرى في نفس الموضوع ، وعلاقة ذلك بالظروف التي نزلت فيها الآية أو قيل فيها الحديث .

وبهذا تبدو الآيات والاحاديث « سلاسل » متصلة لا احكاما متفرقة .. وتتجمع هذه السلاسل حتى تصل الى الاهداف الخمسة الرئيسية التي اشار اليها في بناء فكري متكامل متناسق .

وما ينطبق على مصادر الشريعة الاساسية من الكتاب والسنة ، ينطبق على اقوال الذين عرضوا بعد هذا لمسار التاريخ الاسلامي والعالمي كما تصوروه : فاذا وجدنا فيهم من يدعو الى مزيد من الزهد ، كانت دعوته — في الاغلب — وسط ظروف اشتد فيها انغماس الناس في متاع الدنيا . واذا وجدنا دعوة شديدة الى التمسك بالمصادر مع حذر من مصادر معرفة وافدة ، كان هذا نوعا من رد الفعل خوفا على تفكك الوجود الاسلامي ثم

---

(٦٢) مشكاة المصابيح للتبريزي . ٣ : ٢٩٣ . حديث رقم ٦٢٧٧ . ط . مكتبة التراث الاسلامي / حلب . ط . المكتب الاسلامي . دمشق ١٣٨٢ هـ — ١٩٦٢ م .

انجرافه في تيار الحياة ، كما يجرف السيل حطام قرية دمرها اندفاع تيار . والنموذجان المتقابلان هنا : كتابات الامامين الغزالي وابن تيمية .

ويأتي الخطر في التصور من الآراء الأحادية او المبنية على اختيارات جزئية يحاول بها صاحبها ان يؤكد وجهة نظر محددة في ذهنه من قبل . وفي كتابات بعض الذين عملوا في ميدان الاستشراق نماذج من هذه الاحكام التي بنيت على حقائق جزئية[٦٣] .

---

(٦٣) مالك بن نبي : الظاهرة القرآنية ٥٤ ــ ٦٠ بعنوان مدخل الى دراسة الظاهرة القرآنية . ترجمة عبد الصبور شاهين . ط . دار الفكر بيروت ١٩٦٨ .
وانظر : مصطفى السباعي : السنة ومكانتها في التشريع . ط . الثانية (١٩٧٨) ص ٦٠ ــ ٢٧ . وفيه مناقشة لآراء (جولد تسيهر) وذكر رأي المستشرق نيبرج عندما قابله في جامعة ابسالا (السويد) فكان من قوله « ان جولد تسيهر كان في القرن الماضي ذا شهرة علمية ومرجعا للمستشرقين . اما في هذا العصر بعد انتشار الكتب المطبوعة في بلادكم ، فلم يعد جولد تسيهر مرجعا كما كان في القرن الماضي . لقد مضى عهد جولد تسيهر في رأينا » ص ١٦ . ويخصص السباعي الفصل السادس من كتابه لموضوع « السنة مع المستشرقين » وفيه دراسة مفصلة لآراء جولد تسيهر ونقدها ص ١٨٧ ــ ٢٣٥ .

يبدو من هذا ، كيف يعني القرآن بعناصر الدراسة التاريخية من الزمان والمكان والاحداث والاشخاص والابطال . ثم بمناهج هذه الدراسة من المعرفة وتحقيق الرواية وتعليلها ، ثم يتخذ من هذا كله ركائز لصناعة تاريخ جديد ، رابطا بين الماضي والحاضر بامتداداتهما الموضوعية ، والزمانية والمكانية ، وبين المستقبل ، في هذه الآفاق جميعا ، واضعا المسؤلية الاساسية على الانسان في عمله ليتخذ طريقا قائما على الايمان والمعرفة . ولا يحاول القرآن ان يتخذ من الفكر الاحادي سبيلا يغلب به عنصرا من عناصر الحياة ، كالاقتصاد او الصراع الطبقي او التحدي الحضاري ، وانما يزن هذه جميعا في مواقعها ، ويعطي من الامثلة ما يوضح به هذا المنهج ، مع بيان ان النور الاكبر الذي يسير به الفرد والمجتمع من الحياة ، هو ما يربط الناس بالله ، وما يربطهم بعضهم ببعض ، فاذا الامر توحيد ووحدة ، تراعي فروق الزمان والمكان والبيئة ، دون ان تفقدها هذه الظروف وحدتها الاصيلة .

الاهتداء بالقرآن في كتابة التاريخ :

وكما ان القرآن هو الملهم الاكبر لأي شاعر او ناثر او كاتب بالعربية ، دون ان يحاكيه من يهتدي به ، فكذلك هو في التاريخ : نسيج وحده، ينير الطريق للمؤرخين دون ان يكون نموذجا للمحاكاة في كتابة التاريخ . لا يوصف القرآن الا بانه

« القرآن » بصفاته وآثاره التي ذكرها الله فيه : نور وهدى وتبيان وتفصيل وذكرى وعبرة وتصديق .

نستطيع ان نستهدي به في الافادة من عناصر الزمان والمكان والاحداث والابطال ، والقاء الاضواء على زوايا متعددة من الحدث الواحد او القصة الواحدة . ونستطيع ان نستهدي به في حب المعرفة ، وفي امانة العرض ، والتحقيق الدقيق ، وتفسير التاريخ وصناعة التاريخ ، تماما كما كان ، ولا يزال ، المحرك الاقوى في آفاق الحضارة الاسلامية جميعا ، دون ان يكون نموذجا يحتذي في كتابة اي مرجع في موضوع متخصص من موضوعاتها .

* * *

كشاف تحليلي

ا

ث

ج

ل

م

كتب للمؤلف

أولا : المجموعة الإسلامية

الكتاب	الناشر	المدينة
١ ــ دروس من غزوة أحد	عالم الكتب ، دار المعارف	القاهرة
٢ ــ مواقف إسلامية	دار المعارف	القاهرة
٣ ــ أحاديث رمضان	دار المعارف	القاهرة
٤ ــ خطوات نحو القدس	دار المعارف	القاهرة
٥ ــ الإسلام والعصر	دار المعارف	القاهرة
٦ ــ الإسلام والمستقبل	دار المعارف	القاهرة
٧ ــ في المحراب	دار الجمهورية	القاهرة
٨ ــ الإسلام والتفرقة العنصرية	دار المعارف	القاهرة
له طبعات بالإنجليزية والفرنسية	اليونسكو	باريس
وطبعة بالفارسية	اليونسكو	طهران
ترجم الى لغات أخرى	رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية	قطر
٩ ــ مع الرسول والمجتمع	مؤسسة الصباح	الكويت
١٠ ــ أيها الأبناء هذا دينكم	،، ،،	،، ،
١١ ــ آية وقصة	،، ،،	،، ،

ثانياً : المجموعة الجغرافية العامة والإسلامية :

الكتاب	الناشر	المدينة
١٢ ــ قضية كينيا	وزارة الثقافة	القاهرة

١٣ ــ دراسات في افريقيا المعاصرة	دار القلم	القاهرة
١٤ ــ جغرافية الإسلام في إفريقيا	معهد الدراسات الإسلامية	القاهرة
١٥ ــ في أرض النيل	عالم الكتب	القاهرة
١٦ ــ دراسات في الجغرافيا البشرية للسودان	معهد الدراسات العربية ودار المعارف	القاهرة

ثالثاً : دراسات عربية بالاشتراك :

١٧ ــ دراسات في المجتمع العربي	الانجلو المصرية	القاهرة
١٨ ــ المجتمع العربي	النهضة العربية	القاهرة

عن المؤلف

شغل المؤلف المناصب العلمية والتنفيذية الآتية :

١ ــ أستاذ الجغرافيا البشرية بجامعة القاهرة .
٢ ــ مدير جامعة الكويت .
٣ ــ نائب رئيس الوزراء للشئون الدينية ووزير الأوقاف وشئون الأزهر
بجمهورية مصر العربية
٤ ــ المستشار بالديوان الأميري بالكويت
٥ ــ عضو اللجنة العالمية للتاريخ العلمي والثقافي للانسان ــ اليونسكو
باريس .

